

الباب الثانى
من أخبار بنى أمية

obeikandi.com

١ - فصل

أول دولة بنى أمية معاوية بن أبى سفيان رضى الله تعالى عنهما^(١)

[٩] قيل : جلس يوماً فى مجلس كان له بدمشق ، وكان الموضع مفتوح الجوانب الأربعة يدخل فيه النسيم من كل جانب ، قال : فينما هو جالس ينظر إلى بعض الجهات ، وكان يوماً شديداً الحر لا نسيم فيه ، قال : وكان وسط النهار وقد لفتحت الهواجر^(٢) ، إذ نظر إلى رجل يمشى نحوه ، وهو يتلظى من حر التراب ، ويحجل فى مشيته حافياً فتأمله ، وقال لجلسائه : هل خلق الله سبحانه وتعالى أشقى ممن يحتاج إلى الحركة فى هذا الوقت وفى مثل هذه الساعة ؟ فقال بعضهم : لعله بقصد أمير المؤمنين ، فقال : والله لئن كان قاصدى لأجل شىء لأعطينه وأستجلب

(١) صحابى من كتاب الوحى ، كان فصيحاً ، حليماً ، أسلم (هـ٨) ، ولأه أبو بكر جيش تحت إمرته أخيه ففتح صيدا ، وعرقه ، وبيروت . أسس الدولة الأموية فى الشام ، ودامت لهم الخلافة إلى أن بلغ من الشيعة ، فعهد بها إلى ابنه يزيد ، له (١٣٠ حديثاً) . بلغت الفتوحات فى عصره إلى المحيط الأطلنطى ، وهو أول من ركب بحر الروم وهو أول من جعل دمشق مقراً للخلافة ، وأول من اتخذ المقاصير ، وأول من اتخذ الحرس والحجاج فى الإسلام . وكان عمر بن الخطاب يقول فيه : هذا كسرى العرب ، ت [٦٠هـ - ٦٨٠م] .

(٢) الهواجر ، جمع هاجرة : نصف النهار فى القيظ ؛ من عند زوال الشمس إلى العصر لأن الناس يستكنون فى بيوتهم كأنهم قد تهاجروا .

الأجر به ، أو مظلوماً لأنصرنه . يا غلام قف بالباب فإن طلبني هذا الأعرابي فلا تمنعه من الدخول علىّ فخرج فوافاه ، فقال : ما تريد ؟ قال : أمير المؤمنين ، قال : ادخل فدخل فسلم ، فقال له معاوية : ممن الرجل ؟ قال : من تميم . فما الذي جاء بك في هذا الوقت ؟ قال : جئتك مشتكياً وبك مستحيراً ، قال : ممن ؟ قال : من مروان بن الحكم^(١) عاملك ، وأنشد يقول :

معاوى يا ذا الجود والحلم والبذل	ويا ذا الندى والعلم والرشد والنبيل
أنتك لما ضاق في الأرض مذهبي	فيا غوث لا تقطع رجائي من العدل
وجد لي يانصاف من الحائر الذي	بلاني بشيء كان أيسره قتلى
سباني ابن سعدى وانبرى لخصومتي	وجار ولم يعدل وأغصني أهلي
وهم بقتلى غير أن منيتي	تأت ولم أستكمل الرزق من أجلي

قال : فلما سمع معاوية كلامه والنار تتوقد من فيه ، قال له : مهلا يا أخا العرب اذكر قصتك وأبني لي عن أمرك ، فقال : يا أمير المؤمنين كانت لي زوجة ، وكنت لها محباً وبها كلفاً^(٢) ، وكنت بها قرير العين طيب

(١) مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية أبو عبد الملك : من خلفاء الدولة الأموية ، وهو أول من ملك من بني الحكم بن أبي العاص وإليه ينسب بنو مروان ، وهو ممن خرج إلى البصرة مع طلحة والزبير وعائشة يطالبون بدم عثمان . دعى لنفسه بالخلافة بعد وفاة يزيد فبايعه أهل الأردن [٦٤هـ] ودخل الشام فأحسن تديرها ، وخرج إلى مصر فولى عليها ابنه عبد الملك ثم عاد إلى دمشق ، ت [٦٥هـ - ٦٨٥م] . انظر : الإصابة لابن حجر (٨٣٢٠) ، أسد الغابة (٣٤٨/٤) ، الطبري (٣٤/٧) .

(٢) الكلف : شدة العشق والولع .

النفس، وكانت لى جذعة من الإبل^(١)، كنت أستعين بها على قوام حالى وكفاية أودى^(٢)، فأصابتنا سنة أذهبت الخف والحافر ، فبقيت لا أملك شيئا ، فلما قل ما يبدى ، وذهب مالى ، وفسد حالى ، بقيت مهانا ثقلا على الذى يالفنى، وأبعدنى من كان يشتهى قربى وأزور من لا يرغب فى زيارتى.

فلما علم أبوها ما بى من سوء الحال وشر المال أخذها منى ، وجحدنى، وطرذنى ، وأغلظ على ، فأتيت إلى عاملك : مروان بن الحكم راجيا لنصرتى ؛ فلما أحضر أباهما وسأله عن حالى قال : ما أعرفه قط ، فقلت : أصلح الله الأمير إن رأى أن يحضرها ويسألها عن قول أبيها ، فعل ، فبعث خلفها فلما حضرت بين يديه وقعت منه موقع الإعجاب ، فصار لى خصما وعلى منكرا وأظهر لى الغضب وبعث بى إلى السجن فبقيت كأنما خررت من السماء أو استهوت بى الريح فى مكان سحيق ، ثم قال لأبيها : هل لك أن تزوجنيها على ألف دينار وعشرة آلاف درهم ، وأنا ضامن خلاصها من هذا الأعرابى ، فرغب أبوها فى البذل وأجابه إنى ذلك . فلما كان من الغد بعث لى وأحضرنى ونظر إلى كالأسد الغضبان ، وقال : طلق سعاد ، فقلت : لا ، فسلط على جماعة من غلماناه فأخذونى يعذبوننى بأنواع العذاب ، فلم أجد لى بدا من طلاقها ، ففعلت فأعادنى إلى السجن فمكنت فيه إلى أن انقضت عدتها فتزوجها وأطلقنى وقد أتيتك راجيا وبك مستنجيرا وإليك ملتجئا وأنشد يقول :

فى القلب منى غرام للشار فيه استعار

(١) جذعة من الإبل : هى صغار الإبل ، وجمعها جذاع .

(٢) أودى : الكد والتعب .

والجسم مرمى بسهم	فيه الطيب يحار
وفى فؤادى جمر	والجمر فيه شرار
والعين تهطل دمعاً	فدمعها مدرار
وليس إلا بربرى	وبالأمير انتصار

قال : ثم اضطرب واصطكت لهاته وصار مغشياً عليه ، وأخذ يتلوى كالحية. قال : فلما سمع معاوية كلامه وإنشاده قال : تعدى ابن الحكم فى حدود الدين ، وظلم واجترأ على حرم المسلمين ثم قال : لقد أتيتنى يا أعرابى بحديث لم أسمع بمثله قط ، ثم دعا بدواة وقرطاس ، وكتب إلى مروان بن الحكم كتاباً يقول فيه " إنه قد بلغنى أنك تعديت على رعبتك فى حدود الدين وينبغى لمن كان والياً أن يكف بصره عن شهواته ، ويزجر نفسه عن لذاته ، ثم كتب بعده كلاماً طويلاً اختصرته وأنشد يقول :

وليت أمراً عظيماً لست تدركه	فاستغفر الله من فعل امرئ زانى
وقد أتانا الفتى المسكين منتحياً	يشكو إلينا بيث ثم أحزان ^(١)
أعطى الإله يميناً لا يكفرها	شئ وأبرأ من دينى وأيمانى
إن أنت خالفتنى فيما كتبت به	لأجعلنك لحماً بين عقبان
طلق سعاد وعجلها محهزة	مع الكميت ومع نصر بن ذبيان

ثم طوى الكتاب وطبعه ، واستدعى بالكميت ، ونصر بن ذبيان ، وكان يستنهضهما فى المهمات لأمانتهما ، فأخذ الكتاب وساراً حتى قدما المدينة ، فدخل على مروان بن الحكم وسلموا عليه وسلموا إليه الكتاب ، وأعلماه بصورة الحال ، فصار مروان يقرأ ويكى ثم قام إلى سعاد ،

(١) البث : الحال .

وأعلمها ولم يسعه مخالفة معاوية ، فطلقها بمحضر الكميث ونصر بن
ذبيان ، وجهزهما وصحبتهما سعاد ، ثم كتب مروان كتابا يقول فيه هذه
الآيات :

أوفى بنذك في سر وإعلان	لا تعجلن أمير المؤمنين فقد
فكيف أدعى باسم الخائن الزاني	وما أتيت حراما حين أعجبنى
فيك الأمانى عن تمثال إنسان	أعذر فإنك لو أبصرتها لحررت
عند الخليفة من إنس ومن جان	فسوف يأتيك شمس ليس يدرکہا

ثم ختم الكتاب ، ودفعه إلى الرسولين ، وسارا حتى وصلا إلى
معاوية، وسلما إليه الكتاب ، فقرأه وقال : لقد أحسن في الطاعة وأظن
ذكر الجارية ، ثم أمر بإحضارها فلما رآها رأى صورة حسناء لم ير أحسن
منها ولا مثلها في الحسن والجمال والقدر والاعتدال ، فخاطبها فوجدها
فصيحة اللسان حسنة البيان فقال : على بالأعرابي فأتى به وهو في غاية من
تغير الحال فقال : يا أعرابي هل لك عنها من سلوة وأعوضك عنها ثلاث
جوار نهد أبكار كأنهن الأقمار مع كل جارية ألف دينار ، وأقسم لك في
بيت المال كل سنة ما يكفيك وما يغنيك ، قال : فلما سمع الأعرابي كلام
معاوية شفق شهقة ظن معاوية أنه مات بها ، فقال له معاوية : ما بالك بشر
بال وسوء حال ؟ فقال الأعرابي : استجرت بعدلك من جور ابن الحكم،
فبمن استجير من جورك وأنشد يقول :

كالمتجير من الرمضاء بالنار	لا تجعلنى فداك الله من ملك
يمسى ويصبح فى هم وتذكار	أردد سعاد على حيران مكتئب
فلان فعلت فلانى غير كفار	أطلق وثاقي ولا تبخل على بها

ثم قال : والله يا أمير المؤمنين لو أعطيتنى الخلافة ما أخذتها دون
سعاد وأنشد يقول :

أبى القلب إلا حب سعدى وبغضت على نساء مالهن ذنوب
فقال له معاوية : إنك مقر بأنك طلقته ومروان مقر بأنه طلقها ،
ونحن نخيرها فإن اختارت سواك تزوجناها ، وإن اختارتك حولناها إليك ،
قال : افعل ، فقال : ما تقولين يا سعدى أيما أحب إليك أمير المؤمنين فى
عزه وشرفه وقصوره وسلطانه وأمواله وما أبصرتيه عنده ، أو مروان بن
الحكم فى تعسفه وجوره ، أو هذا الأعرابى فى جوعه وفقره فأنشدت
تقول :

هذا وإن كان فى جوع وإضرار أعز عندى من قومى ومن جارى
وصاحب التاج أو مروان عامله وكل ذى درهم عندى ودينار

ثم قالت : والله يا أمير المؤمنين ما أنا بخاذلته لحادثة الزمان ، ولا
لغدرات الأيام وإن له صحبة قديمة لا تنسى ومحبة لا تبلى ، وأنا أحق من
يصبر معه فى الضراء كما تنعمت معه فى السراء ، فتعجب معاوية من عقلها
ومودتها له وموافاتها فدفع لها عشرة آلاف درهم ، ودفع مثلها للأعرابى ،
وأخذها وانصرف ، انتهى .

[١٠] ومن ثمرات الأوراق عن الأجوبة الهاشمية وبلاغتها فى
المحل الرفيع^(١) : فمن أجل ذلك أنه اجتمع عند معاوية عمرو بن

(١) صاحب ثمرات الأوراق ، هو : أبو بكر بن عبد الله الحموى الحنفى ، يعرف بابن
حجة . [٧٦٧هـ - ٨٣٧هـ] انظر : ثمرات الأوراق ص ٥٢ .

العاص^(١) رضي الله عنه، والوليد بن عقبة^(٢)، وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة، فقالوا: يا أمير المؤمنين ابعث إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما^(٣) يحضر لدينا ، قال لهم : ولم ؟ قالوا : كي نوبخه ونعرفه أن أباه قتل عثمان، فقال لهم معاوية : إنكم لن تطيقوه ولن تنتصفوا منه ولا تقولوا له شيئاً الا كذبكم ، ولا يقول لكم ببلاغته شيئاً إلا صدقه الناس ، فقالوا : أرسل إليه فإننا نكفيه فأرسل له معاوية.

فلما حضر قال : يا حسن إنني لم أرسل إليك ولكن هؤلاء أرسلوا إليك فاسمع مقالتهم ، فقال الحسن رضي الله عنه : فليتكلموا ونحن نسمع ، فقام عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا

(١) عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد : فارس شجاع ، صاحب رأى وذكاء ، أسلم قبل الفتح [٨هـ] أمره النبي ﷺ على سرية نحو الشام ، ثم ولاءه على عمان ، وولاد عمر على فلسطين والأردن . فتح مصر أيام عمر . سار إلى معاوية بالشام بعد مقتل عثمان وشهد صفين ، وكان له دور في التحكيم بين معاوية وعلي ، ت[٤٣] هـ = ٦٦٣هـ . انظر : الاستيعاب (٣/١١٨٤)

(٢) الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي : هو أخو عثمان بن عفان لأمه ، أسلم يوم فتح مكة ، ونزلت فيه قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ فَاسِقٌ...﴾ الآية . وشهد عليه جماعة عند عثمان بن عفان بشرب الخمر فعزل عن الكوفة وحده . واعتزل الفتنة بين علي ومعاوية ، ولكنه رثى عثمان وحرص معاوية على الأخذ بشأره ومات بالرقعة ، ت[٦١] هـ = ٦٨٠م .

(٣) الحسن بن علي ، سبط النبي ﷺ وابن فاطمة وعلي . روى عن النبي ﷺ أحاديث ، واشتهر بحلمه وورعه وكرمه ، وكان مزواجا مطلقا . وولى الخلافة بعد استشهاد أبيه علي رضي الله عنه ثم تنازل عن الحكم لمعاوية درءاً للفتنة ، وهو أشهر من أن يعرف به .

حسن هل تعلم أن أباك أول من أثار الفتنة ، وطلب الملك فكيف رأيت صنع الله تعالى به ، ثم قام الوليد بن عقبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا بنى هاشم كنتم أصهار عثمان بن عفان ، فنعم الصهر كان لكم لقربه من رسول الله ﷺ يقربكم ويفضلكم ثم بغيتم عليه وقتلتموه ، وقد أردنا قتل أيك فأنقذنا الله منه ، ولو قتلناه ما كان علينا ذنب ، ثم قام عتبة بن أبي سفيان ، فقال : يا حسن إن أباك قد تعدى على عثمان فقتله حسدا على الملك والدنيا فسلبهما الله منه ولقد أردنا قتل أيك حتى قتله الله تعالى ، ثم قام المغيرة بن شعبة وقال : كلاما سبا لعلى وتعظيما لعثمان .

فقام الحسن رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : بك أبدأ يا معاوية لم يشتمنى هؤلاء ، ولكن أنت تشتمنى بغضا وعداوة ومخالفة لجدى رسول الله ﷺ . ثم التفت إلى الناس وقال : أنشدكم الله إن الذى شتمه هؤلاء أما كان أبى وهو أول من آمن بالله وصلى إلى القبلتين وأنت يا معاوية كافر تشرك بالله ، وكان مع أبى لواء النبى ﷺ يوم بدر ولواء المشركين مع معاوية ، ثم قال : أنشدكم الله تعالى أما كان معاوية يكتب لجدى صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه يوما فرجع الرسول ، وقال : هو يأكل ، فرد إليه الرسول ثلاث مرات ، كل ذلك يقول : هو يأكل ، فقال النبى ﷺ : «لا أشبع الله بطنك ، يا معاوية»^(١). أما تعرف ذلك من بطنك ، ثم قال : وأنشدكم الله أما تعلمون أن معاوية كان يقود بأبيه وهو على جمل وأخوه هذا يسوقه ، فقال رسول الله ﷺ ما قال وأنت تعلم ذلك هذا كله لك يا معاوية . وأما أنت يا عمرو ، فقد تنازعك خمسة من قريش فغلب

(١) الحديث : أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب ٢٥ رقم ٩٥ .

عليك شبه الأيهم ، وهو أقلهم حسبا وأسوأهم منصبا ، ثم قممت وسط قريش ، فقلت : إني شاني^(١) محمد بثلاثين بيتا من الشعر ، فقال النبي ﷺ : «اللهم إني لا أحسن الشعر اللهم إلعن عمرو بن العاص بكل بيت لعنة»^(٢). ثم انطلقت إلى النجاشي بما عملت وعلمت ، فكذبك وردك خائبا ، فأنت عدو بني هاشم في الجاهلية والإسلام ، فلا نلومك على بغضك الآن . وأما أنت يا ابن أبي معيط فكيف نلومك على سبك لأبي ، وقد جلدك أبي في الخمر ثمانين جلدة^(٣) ، وقتل أباك صبورا بأمر جدى ، وقتله جدى بأمر ربي ، ولما قدمه للقتل قال : من للصيبة بعدى يا محمد ؟ فقال جدى : لهم النار فلم يكن لهم عند جدى غير النار ، ولم يكن لهم عند أبي غير السوط والسيف^(٤). وأما أنت يا عتبة فكيف تعيب أحدا بالقتل ولا تعيب نفسك ، فلم لا قتلت الذى وجدته على فراشك مضاجعا لزوجتك ، ثم أمسكتها بعد أن بغت ، وأما أنت يا أعور ثقيف ففى أى شىء نسب عليا أفى بعده من رسول الله ﷺ أم لحكم جائر فى رعيته فى الدنيا ، فإن قلت : فى شىء من ذلك كذبت وكذبك الناس ، وإن زعمت أن عليا قتل عثمان ، فقد كذبت وكذبك الناس ، وإنما مثلك كمثل بعوضة وقعت على نخلة فقالت لها : استمسكى فإني أريد أن أطير فقالت لها النخلة : ما علمت بوقوعك فكيف يشق على طيرائك ، فكيف يا أعور ثقيف يشق علينا سبك ثم نفض ثيابه وقام .

(١) شاني : هاج .

(٢) انظر : تهذيب تاريخ ابن عساكر (١٠٨/٧) .

(٣) انظر : الإصابة (٦٠١/٣) .

(٤) انظر : الإصابة لابن حجر العسقلاني (٦٠١/٣ رقم ٩١٤٩) .

فقال لهم معاوية : ألم أقل لكم لا تنتصفون منه فوالله لقد أظلم على البيت حتى قام .

[١١] وروى : أى معاوية رضي الله عنه خرج عاما حاجا فمر بالمدينة ففرق على أهلها أموالا جزيلة ولم يحضر الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما، فلما حضر قال له معاوية : مرحبا مرحبا برجل تركنا حتى نفذ ما عندنا وتعرض لنا لبيخلنا ، فقال الحسن رضي الله عنه : كيف ينفد ما عندك ، وخراج الدنيا يحىء إليك فقال له معاوية : قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة وأنا ابن هند ، فقال الحسن : قد رددته عليك وأنا ابن فاطمة الزهراء رضي الله عنها .

[١٢] [وقيل] : إن معاوية رضي الله عنه جلس يوما بين أصحابه إذ أقبلت قافلتان من البرية فقال لبعض من كان بين يديه : انظروا هؤلاء القوم واثنوني بأخبارهم ، فمضوا وعادوا ، وقالوا : يا أمير المؤمنين إحداهما من اليمن والأخرى من قريش ، فقال : ارجعوا إليهم ودعوا قريشا يأتونا ، وأما أهل اليمن فينزلون في أماكنهم إلى أن نأذن لهم في الدخول فلما دخلت قريش سلم عليهم وقربهم ، وقال : أتدرون يا أهل قريش لم أخرت أهل اليمن وقربتكم ؟ قالوا : لا والله يا أمير المؤمنين ، قال : لأنهم لم يزالوا يتناولون علينا بالفخار ويقولون ما ليس فيهم ، وإنى أريد إذا دخلوا غدا وأخذوا أماكنهم من الجلوس أن أقوم فيهم نذيرا وألقى عليهم من المسائل ما أقل به إكرامهم وأرخص به مقامهم فإذا دخلوا وأخذوا أماكنهم من الجلوس وسألوا عن شيء فلا يحييهم أحد غيري .

قال الراوى : وكان المقدم عليهم رجلا يقال له الطرماح بن الحكم الباهلى^(١)، فأقبل على اصحابه وقال : أتدرون يا أهل اليمن لم أخرجكم ابن هند وقدم قريشا ؟ قالوا: لا، قال : لأنه فى غداة غد يقوم فيكم نذيرا ويلقى عليكم من المسائل ما يقل به إكرامكم ويرخص به مقامكم ، فإذا دخلتم عليه وأخذتم أماكنكم من الجلوس وسألکم عن شىء فلا يجيبه أحد غيرى، فلما كان من الغد دخلوا عليه وأخذوا أماكنهم ، فنهض معاوية قائما على قدميه ، وقال : أيها الناس من تكلم بالعربية ، قبل العرب وعلى من أنزلت العربية ، فقام الطرماح وقال : نحن يا معاوية ، ولم يقل يا أمير المؤمنين ، فقال : لماذا ؟ فقال : لأنه لما نزلت العرب بياهل وكانت العبرانية لسان الناس كافة أرسل الله تعالى العربية على لسان يعرب بن قحطان الباهلى^(٢)، وهو جدنا فقرأ العربية وتداولتها قومه من بعده إلى يومنا هذا ، فنحن يا معاوية عرب بالجنس وأنتم عرب بالتعليم فسكت معاوية زمانا ثم رفع رأسه، وقال: أيها الناس من أقوى العرب إيمانا ومن شهد له بذلك ، فقال الطرماح : نحن يا معاوية، قال : ولم ؟ قال : لأن الله بعث محمدا ﷺ فكذبتموه وسفهتتموه وجعلتموه مجنونا فأويناه ونصرناه فأنزل الله ﴿والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا﴾ [الأنفال : ٧٤] وكان

-
- (١) الطرماح بن حكيم بن الحكم الباهلى : شاعر إسلامى ، فحل ، من طيء ، ولد ونشأ فى الشام ، وانتقل إلى الكوفة ، واتصل بخالد بن عبد الله القسرى ، وكان يكرمه ويستجيد شعره ، وكان هجاء، معاصرا وصديقا للكميت ، ت[١٢٥هـ - ٧٤٣م] .
- (٢) يعرب بن قحطان الباهلى : أحد ملوك العرب فى جاهليتهم الأولى ، من الخطباء والحكماء والشجعان، وهو أبو قبائل اليمن كلها ، وهو العرب العاربة . قال وهب بن منبه : يعرب أول من قال الشعر ووزنه ومدح ووصف .

النبي ﷺ محسنا لنا متجاوزا عن سيئاتنا فلم لم تفعل أنت كذلك كأنك خالفت رسول الله ﷺ. قال : فسكت زمانا ثم رفع رأسه وقال : أيها الناس من أفصح العرب لسانا ومن شهد له بذلك ؟ قال الطرماح : نحن يا معاوية، قال : ولم ذلك ؟ قال : لأن امرأ القيس بن حجر الكندي^(١) منا قال في بعض قصائده:

يطعمون الناس غبا في السنين المحلات
في جفان كالجوابي وقـدور راسيات

وقد تكلم بالفاظ جاء مثلها في القرآن وشهد له رسول الله ﷺ بذلك . قال: فسكت معاوية ، زمانا ، وقال : أيها الناس من أقوى العرب شجاعة وذكرنا ومن شهد له بذلك قال الطرماح : نحن يا معاوية ، قال : ولم ذلك ؟ قال : لأن منا عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، كان فارسا في الجاهلية وفارسا في الإسلام وشهد له بذلك النبي ﷺ فقال له معاوية : وأين أنت وقد أتى به مصفدا بالحديد ، فقال له الطرماح : ومن أتى به ؟ قال معاوية : أتى به عليّ ، قال الطرماح : والله لو عرفت مقداره لسلمت إليه الخلافة ولا طمعت فيها أبداً . فقال له معاوية : أتحنى يا عجوز اليمن؟ قال : نعم أححك يا عجوز مضر ، لأن عجوز اليمن بلقيس آمنت بالله وتزوجت بنبيه سليمان بن داود عليهما السلام ، وعجوز مضر ، جدتك التي قال الله في حقها ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ

(١) امرؤ القيس بن حجر الكندي : أشهر شعراء العرب على الإطلاق ، وأحد أصحاب المعلقة، يمانى الأصل، ولد بنجد وكان أبوه ملك أسد وغطفان، ت[٨٠ق

من مسد ﴿[المسد : ٣] قال : فسكت معاوية زمانا ، ثم رفع رأسه وقال : جزاك الله خيرا من صاحب ، ووفر عقلك ، ورحم سلفك ، وأعطاه وأحسن إليه، انتهى .

[١٣] قال الراوى : وخطب معاوية يوماً فقال : أيها الناس إن الله تعالى قال : ﴿وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ [الحجر : ٢١] . فعلام تلومنى إذا قصرت عنكم فى عطاياكم ؟ فقال له الأحنف بن قيس^(١) : إنا والله ما نلومك فيما فى خزائن الله ولكن وضعت يدك على ما أنزل الله من خزائنه فجعلته فى خزائنك وحلت بيننا وبينه .

[١٤] ومما يروى عن الشعبي^(٢) قال^(٣) : استأذنت سودة بنت عمارة بن الأسد^(٤) على معاوية بن أبى سفيان ، فأذن لها . فلما دخلت عليه قال لها يا بنت الأسد ألسن القائلة :

شمر كفعل أيبك يا ابن عمارة يوم الطعان وملتقى الأقران

(١) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين : أحد من يضرب بحلمه وسودده النمى ، العالم النبيل ، أبو بحر . كان من قواد جيش على بن أبى طالب يوم صفين . قال ابن سعد : كان ثقة ، مأمونا ، قليل الحديث ، وكان معاوية يعظمه ويحله . ويقول : هذا الذى إذا غضب غضب له منه ألف لا يدرون فهم غضب ، ت[٧٢٢ هـ = ٦٧١ م] .

(٢) الشعبي : عامر بن شراحيل بن عبد بن ذى كابر ، تابعى ، إمام ، وعلامة عصره ، من المحدثين وكان ممن خرج مع بن الأشعث على الحجاج . استقضاه عمر بن عبد العزيز . وكان يقول ما كتب سوداء فى يضاء ولاحدثنى رجل بحديث إلا حفظته ، ت[١٠٣ هـ = ٧٢١ م] .

(٣) انظر : العقد الفريد ، لابن عبد ربه (١٠٢/٢) .

(٤) سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية : شاعرة من شواعر العرب ، ذات فصاحة وبيان .

وانصر عليا والحسين ورهطه واقعد لهند وابنها بهوان^(١)
إن الامام أخا النبي محمد علم الهدى ومنارة الإيمان
وقد الجيوش وسر أمام لوائه وارم بأيض صارم وسنان

قالت : بلى يا معاوية وما مثلى من رغب عن الحق واعتذر . قال :
فما حملك على ذلك ؟ قالت : حب علىّ واتباع الحق . قال : والله ما
أرى عليك من أثر علىّ شيئا . قالت : أنشدك الله يا معاوية لا تذكر ما
مضى . قال : هيهات وما مثلك ومقام أخيك يسبنى وما لقيت من أخيك ،
قالت : صدقت يا معاوية لم يكن أخى ذميم المقام ولا حيا، وهو والله كقول
الخنساء:

وان صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار
وأنا أسألك يا معاوية اعفائك مما استعفيت به ، قال : قد فعلت فما
حاجتك ؟ قالت : يا معاوية إنك أصبحت للناس سيذا ولأموهم واليا ،
والله سائلك عن أمرنا وما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم علينا من
يغرك وييطش بسلطانك ويحصدنا حصد السنبل ويدرسنا درس العصفير
ويسومنا الخسف^(٢) ويسلبنا الحيل ، هذا ابن أوطاة^(٣) قدم علينا فقتل رجالى

(١) الحسين بن على سبط النبي ﷺ وابن فاطمة وعلى ، اشتهر بفضله ، وورعه وعبادته .
استشهد يوم عاشوراء بكر بلاء ، وهو أشهر من أن يعرف به ، ت [٦١ هـ - ٦٨٠ م] ..
لهند ، يعنى : هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان وأم معاوية .

(٢) الخسف : الذل .

(٣) ابن أوطاة ، هو : بسر بن أوطاة العامري القرشى ، ولد بمكة قبل الهجرة وأسلم
صغيرا، وله حديثان فى مسند أحمد . كان من رجال معاوية بن أبى سفيان ، وجهه

وأخذ مالى، وليولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة، فإما عزلته فشكرناك وإما
أقررتة فعرفناك ، فقال لها : أبقولك تهددينى ، هممت أن أحملك على
قتب جمل أشرس وأسيرك إليه لينفذ فيك أمره ، فأطرقت وبكت وأنشدت
تقول :

صلى الإله على روح تضمنها قبر فأصبح فيه الحق مدفونا
قد حالف الحق لا يبغي به بدلا فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال : ومن ذاك ؟ قالت : أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله
وجهه . قال : ولم ؟ قالت : أتيت فى رجل ولاء علينا ولم يكن بيننا وبينه
إلا كما بين الغث والسمين فوجدته قائما يصلى ، فلما نظر إلى انفتل من
صلاته، ثم قال برأفة ورحمة : ألك حاجة فأخبرته فبكى ، ثم قال : اللهم
اشهد على وعليهم إني لم أولهم وأمرهم بظلم خلقك ، ولا بترك حقك ،
ثم أخرج من جيبه قطعة من جلد كهية ظرف الجواب فكب فيها : بسم
الله الرحمن الرحيم ﴿قد جاءكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان
ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ [الأعراف: ٨٥] ﴿ولا تعشوا فى الأرض
مفسدين بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ﴾
[مرد: ٨٥، ٨٦] إذا قرأت كتابى هذا فاحتفظ بما فى يدك حتى يقدم عليك من
يقبضه منك والسلام، فأخذته منه وأوصلته إليه فامثل ورجع عما كان فيه .
فقال معاوية: اكتبوا لها برد مالها والعدل فى حالها ، فقالت : ألى خاصة أم

=معاوية إلى المدينة بثلاث آلاف فأخضعها (٣٩هـ) واحتل مكة . وارتكب فظائع من
بطشه وقسوته ، وقتل الأطفال وسبى النساء فى اليمن . قال ابن معين : بن أبى أرطاة،
رجل سوء . قال ابن حجر : مختلف فى صحبته ، ت[٨٦هـ - ٧٠٥م] .

لى ولقومى ، قال : بلى لك ، قالت : إذا الفحشاء واللوم هى والله إما عدلا
شاملا ، وإلا فأنا كسائر قومى . قال : اكتبوا لها بحاجتها هى وقومها .

[١٥] [قيل]^(١) : لما اتصلت ميسون بنت بحدل^(٢) بمعاوية رضي الله عنه ،
ونقلها من البدو إلى الشام كانت تكثر الحنين على ناسها والتذكر لمسقط
رأسها فاستمع عليها ذات يوم فسمعها تنشد وتقول :

ليبت تخفق الأرواح فيه	أحب إلى من قصر منيف
وأكل كسيرة فى كسر بيتى	أحب إلى من أكل الصنوف
وأصوات الرياح بكل فج	أحب إلى من نقر الدفوف
ولبس عباءة وتقر عينى	أحب إلى من لبس الشفوف
وكلب ينبح الطراق حولى	أحب إلى من قط ألوف
وبكر يتبع الأظعان صعب	أحب إلى من بغل زفوف
وخرق من بنى عمى ضعيف	أحب إلى من علج عنيف

قال الراوى : فلما سمع معاوية الأبيات قال ما رضيت ابنة بحدل
حتى جعلتنى علجا عنيفا^(٣).

(١) انظر : خزانة الأدب ، للبغدادى (٥٩٣/٣) .

(٢) ميسون بنت بحدل بن أنيف : زوجة معاوية وام يزيد ، شاعرة ، وكانت من البدو .
وقال البغدادى فى خزانة الأدب : لما طلقها معاوية قال لها : كنتِ فَبُنتِ ، فأجابته :
ماسررنا إذ كنا ، ولأسفنا إذ بنا ، ت [٨٠هـ = ٧٠٠م] .

(٣) علج عنيف : الحمار الوحشى السمين .

حكاية أجنبية عن المقام

[١٦] يحكى: أن بهراما^(١) لما ولى الملك بعد أبيه ، أقبل على اللهو واللذات والتنزه والصيد ، ولا يفكر فى ملكه ولا فى رعيته ، حتى خرجت البلاد عن يده ، وخربت فى أيامه ، وقلت العمارة وختلت بيوت الأموال . فلما كان فى بعض الأيام ركب إلى بعض منازحه وصيده ، وهو يسير نحو المدائن وكانت ليلة مقمرة فدعا بالموبدان -وهو عند المجوس كالحاخام عند اليهود والقسيس عند النصارى- لأمر خطر فجعل يحدثه فتوسطا فى سيرهما بين خربات كانت من أمهات الضياع قد خربت فى مدة ملكه لا أنيس فيها إلا البوم ، وإذا بيوم يصيح وصاحبه تحاوله من تلك الخربات ، فقال بهرام: أترى أن أحدا من الناس أعطى فهم لغة هذا الطائر المصوت فى الليل البهيم ؟ فقال الموبدان : أيها الملك أنا ممن خصه الله بذلك . قال : فما يقول هذا الطائر وما يقول الطائر الآخر ؟ فقال الموبدان : هذا بوم ذكر يخطب بومة ، ويقول لها : متعبنى بنفسك حتى يخرج من بيننا أولاد يسبحون الله ويبقى لنا فى هذا العالم عقب يكثرون الترحم علينا ، فأجابته إن الذى تدعوننى إليه فيه الحظ الأكبر والنصيب الأوفر فى العاجل والآجل ، إلا أنى أشرط عليك خصالا أن أعطيها أجبتك إلى ذلك ، فقال لها الذكر: وما تطلبينه منى ؟ قالت : أن تعطينى من خربات أمهات الضياع عشرين قرية مما خربت فى أيام هذا الملك السعيد ، فقال له الملك : فما الذى قال لها الذكر ؟ قال الموبدان : كان من قوله لها : إن دامت أيام هذا الملك السعيد أقطعك منها ألف قرية خراب فما تصنعين . قالت : فى اجتماعنا يحصل ظهور النسل وكثرة الذكر فنقطع لكل ولد من أولادنا ضيعة من

(١) بهراما : أحد الملوك الساسانيين .

هذه الخربات ، فقال لها الذكر : هذا أسهل أمر سألتني وأنا ملئ بذلك ما
حى هذا الملك . فلما سمع الكلام من الموبذن تأثر فى نفسه واستيقظ من
نومه وفكر فيما خوطب به ، فنزل من ساعته ونزل بنزوله الناس وخلا
بالموبذن ، فقال : أيها القائم بأمر الدين الناصح للملك ، والمنبه عما
اغفله من أمور ، واضاعة بلاده ورعيته ما هذا الكلام الذى خاطبتنى به فقد
حركت منى ماكان ساكنا ، فقال الموبذن : صادفت من الملك السعيد
وقت سعد العباد والبلاد فجعلت الكلام مثلا وموعظة على لسان الطائر عند
سؤال الملك اياى عما سأل ، فقال له الملك : أيها الناصح اكشف لى عن
هذا الغرض ماالمراد منه ، فقال : أيها الملك إن الأمر لا يتم الا بالشرعية
والقيام لله بطاعته ولاقوام للشرعية إلا بالملك ، ولاعز للملك إلا بالرجال ،
ولاقوام للرجال إلا بالمال ، ولاسبيل للمال إلا بالعمارة ، ولاسبيل للعمارة
إلا بالعدل وهو الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب جل وعلا ،
وجعل له قيما وهو الملك. فقال الملك : أماما وصفت فحق ، فأبى لى عما
إليه تقصد، وأوضح لى فى البيان ؟ قال : نعم أيها الملك إنك عمدت إلى
الضياع فأقطعتها الخدم وأهل البطالة فعمدوا إلى ماتعجل من غلاتها
فاستعجلوا المنفعة، وتركوا العمارة والنظر فى العواقب ومايصلح الضياع
وسومحوا فى الخراج لقربهم من الملك ، ووقع الحيف على الرعية وعمار
الضياع ، فانجلوا عن ضياعهم ، وقلت الأموال وهلكت الجنود والرعية
وطمع فى ملك فارس من أطاف بها من الملوك والأمم لعلمهم بانقطاع
المواد التى بسببها تستقيم دعائم الملك فلما سمع الملك ذلك أقام فى
موضعه ثلاثة أيام وأحضر الوزراء والكتاب وأرباب الدواوين ، فانتزعت
الضياع من أيدي الخاصة والحاشية وردت إلى أربابها وحملوا على
رسومهم السالفة وأخذوا فى العمارة وقوى من ضعف منهم ، فعمرت البلاد

بذلك وأُخصبت وكثرت الأموال عند الجباة وقويت الجنود وانقطعت مواد الأعداء ، وأقبل الملك يياشر الأمور بنفسه فحسنت سيرته وانتظم ملكه حتى كانت أيامه بعده تُدعى بالأعياد مما عم الناس من الخصب وشملهم من العدل ، انتهى .

حكاية أخرى أجنبية

[١٧] عن الأصمعي^(١) أنه قال : دخلت البصرة أريد بادية بنى سعد ، وكان على البصرة يومئذ خالد بن عبد الله القسري^(٢) ، فدخلت عليه يوما فرجدت قوما متعلقين بشاب ذى جمال وكمال وأدب ظاهر بوجه زاهر حسن الصورة طيب الرائحة جميل البزة^(٣) ، عليه سكينه ووقار قدموه إلى خالد فسألهم عن قصته فقالوا : هذا لص أصبناه البارحة فى منازلنا ، فنظر إليه فأعجبه حسن هيئته ونظافته فقال : خلوا عنه ثم أدناه منه وسأله عن

(١) الأصمعي : أبو سعيد عبد الملك بن قريب ابن عبد الملك ، الإمام ، العلامة الحافظ ، حجة الأدب ، لسان العرب ، اللغوى الإخبارى ، أحد الأعلام . قال الشافعى فيه : ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي . وأثنى أحمد بن حنبل على الأصمعي فى السنة . وكان كثير الطواف فى البوادي ، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها ، ويتحف بها الخلفاء ، فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة ، ت[٢١٦هـ - ٨٣١م] .

(٢) خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسري : أمير العراقيين ، وأحد خطباء العرب وأجوادهم ، يمانى الأصل ، من أهل دمشق . ولى مكة (٨٩هـ) للوليد بن عبد الملك ، وولاه هشام الكوفة والبصرة (١٠٥هـ) إلى أن عزله هشام (١٢٠هـ) وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفى ، وأمره أن يحاسبه ، فسجنه يوسف وعذبه بالحيرة ، ثم قتله ، ت[١٢٦هـ - ٧٤٣م] .

(٣) البزة : الثياب .

قصته ، فقال : إن القول ماقالوه والأمر على ماذكروه، فقال له : ماحملك على ذلك وأنت فى هيئة جميلة وصورة حسنة ؟ قال : حملنى الشر فى الدنيا وبذا قضى الله سبحانه وتعالى ، فقال له خالد: ثكلتك أمك أما كان لك فى جمال وجهك وكمال عقلك وحسن أدبك زاجر لك عن السرقة . قال: دع عنك هذا أيها الأمير وأنفذ ما أمرك الله تعالى به ، فذلك بما كسبت يداى وما الله بظلام للعبيد . فسكت خالد ساعة يفكر فى أمر الفتى ثم أدناه منه وقال له : إن اعترافك على رءوس الأشهاد قل رابى وأنا ماأظنك سارقا، وأن لك قصة غير السرقة فأخبرنى بها ، فقال : أيها الأمير لايقع فى نفسك سوى مااعترفت به عندك وليس لى قصة أشرحها لك ، إلا أنى دخلت دار هؤلاء فسرقت منها مالا فأدركونى وأخذوه منى وحملونى إليك ، فأمر خالد بحبسه وأمر مناديا ينادى فى البصرة : ألا من أحب أن ينظر إلى عقوبة فلان اللص وقطع يده فليحضر من الغد استقر الفتى فى الحبس ووضع فى رجليه الحديد ، تنفس الصعداء ثم أنشد يقول :

هددننى خالد بقطع يدى	إن لم أبح عنده بقصتها
فقلت هيهات أن أبرح بما	تضمن القلب من محبتها
قطع يدى بالذى اعترفت به	أهون للقلب من فضيحتها

فسمعه الموكلون ، فأتوا خالدا وأخبروه بذلك ، فلما جن الليل أمر بإحضاره عنده فلما حضر استنطقه ، فرآه أديا عاقلا لييا ظريفا فأعجب به وأمر له بطعام فأكلا وتحادثا ساعة ؛ ثم قال له خالد : قد علمت أن لك قصة غير السرقة فإذا كان غدا وحضر الناس والقضاة وسألتك عن السرقة فأنكرها واذكر فيها شبهات تدرأ عنك القطع فقد قال رسول الله ﷺ :

«ادروا الحدود بالشبهات»^(١) . ثم أمر به إلى السجن فلما أصبح الناس لم يبق بالبصرة رجل ولا امرأة إلا حضر ليرى عقوبة ذلك الفتى ، وركب خالد ومعه وجوه أهل البصرة وغيرهم ثم دعا بالقضاة وأمر بإحضار الفتى ، فأقبل يحجل فى قيوده ولم يبق أحد من النساء إلا بكى عليه ، وارتفعت أصوات النساء بالبكاء والنحيب فأمر بتسكيت الناس ، ثم قال له خالد ، إن هؤلاء القوم يزعمون أنك دخلت دارهم وسرقت مالهم فما تقول ؟ قال : صدقوا أيها الأمير، دخلت دارهم وسرقت مالهم قال خالد : لعلك سرقت دون النصاب . قال : بل سرقت نصاباً كاملاً . قال : فلعلك سرقت من غير حرز مثله قال : بل من حرز مثله . قال : فلعلك شريك القوم فى شئ منه . قال : بل هو جميعه لهم لاحق لى فيه ، فغضب خالد وقام إليه بنفسه وضربه على وجهه بالسوط ، وقال متمثلاً بهذا البيت :

يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى الله إلا ما أراد

ثم دعا الجلاد ليقطع يده ، فحضر وأخرج السكين ومد يده ووضع عليه السكين فبرزت جارية من صف النساء وعليها آثار وسخ فصرخت ورمت بنفسها عليه ؛ ثم أسفرت عن وجه كأنه البدر، وارتفع للناس ضجة عظيمة كاد أن تقع منها فتنة ؛ ثم نادى بأعلى صوتها ناشدتك الله أيها الأمير لاتعجل بالقطع حتى تقرأ هذه الرقعة ثم دفعت إليه رقعة ، ففضها خالد ، فإذا هى مكتوب فيها :

(١) الحديث : أخرجه البغدادى فى تاريخه (٣٠٣/٩) والزبلى فى نصب الراية

(٣٣٣/٣) بلفظه . انظر : الترمذى (١٤٢٤) والبيهقى (٢٣٨/٨) بلفظ : « ادروا

الحدود عن المسلمين» .

أخالد هذا مستهام متيم رمته لحاظي من قسى الحمالت
فأصماه سهم اللحظ منى فقلبه حليف الجوى من دائه غير فائق
أقر بما لم يقترفه لأنه رأى ذاك خيرا من هتيكة عاشق
فمهلا على الصب الكتيب لأنه كريم السحايا فى الهوى غير سارق^(١)

فلما قرأ الأبيات ، تنحى وانعزل عن الناس ، وأحضر المرأة ، ثم سألها عن القصة فأخبرته أن هذا الفتى عاشق لها وهى له كذلك وأنه أراد زيارتها وأن يعلمها بمكانه فرمى بحجر إلى الدار، فسمع أبوها وأخواتها صوت الحجر فصعدوا إليه ، فلما أحس بهم جمع قماش البيت كله وجعله صرة ، فأخذه وقالوا : هذا سارق ثم أتوا به إليك فاعترف بالسرقة وأصر على ذلك حتى لايفضحنى بين إختوتى وهان عليه قطع يده لكى يستر على ولايفضحنى ، كل ذلك لغزارة مرؤته وكرم نفسه فقال خالد : إنه خليق بذلك : ثم استدعى الفتى إليه وقبل مابين عينيه وأمر بإحضار أبا الجارية ، وقال له : ياشيخ إنا كنا عزمنا على إنفاذ الحكم فى هذا الفتى بالقطع ، وإن الله عصمنى من ذلك وقد أمرت له بعشرة آلاف درهم لبذله يده وحفظه لعرضك وعرض ابنتك وصيانتك لكما من العار وقد أمرت لابنتك بعشرة آلاف درهم وأنا أسألك أن تأذن لى فى تزويجها منه . فقال الشيخ: قد أذنت أيها الأمير لك بذلك . قال : فحمد الله وأثنى عليه وخطب خطبة حسنة وقال للفتى قد زوجتك هذه الجارية فلانة الحاضرة بإذنها ورضاها وإذن أبيها على هذا المال وقدره عشرة آلاف درهم ، فقال : قبلت منك هذا التزويج وأمر بحمل المال إلى دار الفتى مزفوفاً فى الصوانى وانصرف الناس مسرورين ولم يبق أحد فى سوق البصرة إلا نثر عليهما اللوز والسكر

(١) الصَّب : العاشق .

حتى دخلا منزلهما مسرورين مزفوفين قال الأصمعي : فما رأيت يوما أعجب منه أوله بكاء وترح^(١) وآخره سرور وفرح .

وهذه حكاية تشابه ما تقدم :

[١٨] قال حماد الراوية^(٢) : كنت عند جعفر بن سليمان بالبصرة إذ أتى بشاب حسن الوجه ومعه جارية كأنها قضيب بان . فقال صاحب الشرطة : أصلح الله الأمير إنني وجدت هذا وهذه مجتمعين في خلوة وليس لها بمحرم . فقال جعفر للفتى : ماتقول ؟ فقال : صدق ولقد طال والله غرامى بها منذ ثلاث سنين والله ما أمكنتني الخلوة بها إلا في هذا الوقت وأنشد يقول :

تمنيت من ربى أفوز بقربها فلما تهيأ لى المنى عاقه العسر
فوالله بل والله ما كان رية وما كان إلا اللفظ والضحك والبشر
فدونكم جلدى ولا تجلدونها فكم من حرام كان من دونه ستر

قال : فجعلت الجارية تبكى بكاء شديدا فقال لها : وأنت لم تبكين؟ فقالت : والله شفقة مما حل بنا وكيف احتلت حتى خرجت . وكيف بلينا بهذه البلية . قال : أتحيينه قالت : فلم غررت بنفسى ! قال لها : أنت حرة أم مملوكة ؟ قالت : بل مملوكة فأمرها فدخلت الدار وأحضر مولاهما

(١) تَرَحَّحَ ، جمع أتراح : الحزن والغم .

(٢) حماد بن ساهور بن المبارك ، أبو القاسم : أول من لقب بالرواية ، وكان من أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ، أصله من الديلم ، ومولده بالكوفة ، وهو الذى جمع المعلقات السبع ، ت [١٥٥هـ - ٧٧٢م] . انظر : وفيات الأعيان (١٦٤/١) ، لسان الميزان (٣٥٢/٢) .

فاشترها منه بمائتي دينار وأعتقها وزوجها للفتى ووهب له مائة دينار
وكساها فأنشد الفتى يقول :

لقد جدت يا بن الأكرمين بنعمة جمعت بها بين المحبين في ستر
فلا زلت بالإحسان كهفا وملجأ وقد جل ما قد كان منك عن الشكر
قال فضحك وأمر لهما بجائزة وانصرفا مسرورين أ هـ .

٢ - فصل

فى أيام دولة عبد الملك بن مروان^(١)

وهو أول من تسمى عبد الملك فى الإسلام وكان يلقب برشح الحجر ذكره فى حياة الحيوان^(٢) .

[١٩] وذكر محمد بن واسع الهيتى أن عبد الملك بن مروان بعث كتابا إلى الحجاج بن يوسف^(٣) يقول فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم إلى

(١) عبد الملك بن مروان بن الحكم أبو الوليد الأموى : من أعظم خلفاء بنى أمية ودهاتهم. نشأ فى المدينة فقيها واسع العلم ، متعبدا ، ناسكا . شهد يوم الدار مع أبيه ، واستعمله معاوية على المدينة وهو ابن ستة عشرة عاما . وانتقلت إليه الخلافة بموت أبيه [٦٥هـ] وضبط أمورها وظهر بمظهر القوة ، فكان جبارا على معانديه . ونقلت فى أيامه الدواوين من الفارسية والرومية إلى العربية ، وضبطت الحروف بالنقط والحركات. وهو أول من سك الدنانير فى الإسلام . قال الشعبي : ما ذكرت أحدا إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان ، ت [٨٦هـ - ٧١٥م] . انظر : الكامل لابن الأثير (١٩٨/٤) ، الطبرى (١٥٦/٨) .

(٢) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (٩٥/١) .

(٣) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفى : قائد ، دامية ، سفاك ، خطيب . ولد ونشأ بالطائف فى الحجاز ، لحق بروح بن زباع نائب عبد الملك بن مروان فكان فى عهده شرطته ثم مازال يظهر حتى قلده عبد الملك أمر عسكره ، وأمره بقتال عبد الله بن الزبير فقتله ، وفرق جمعه ، فولاه عبد الملك أمر مكة والمدينة والطائف ثم أضاف إليه العراق ، فتولى قمع الثورة فيها وثبت الإمارة لعبد الملك عليها عشرين سنة ، وله -

الحجاج بن يوسف إذا ورد عليك كتابي هذا وقرأته فسير لي ثلاث جوار مولدات نهداً بكار يكون إليهن المنتهى في الجمال ، واكتب لي بصفة كل واحدة منهن ومبلغ ثمنها من المال". فلما ورد الكتاب على الحجاج دعا بالخصاسين ثم أمرهم بما أمر به أمير المؤمنين ، وأمرهم أن يفوضوا في البلاد حتى يقعوا على الغرض فلم يزلوا من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم حتى وقعوا على الغرض ورجعوا إلى الحجاج بثلاث جوار نهد بكار مولدات ليس لهن مثل ؛ وكان الحجاج فصيحا فجعل ينظر إلى كل واحدة منهن وثمانها من المال فوجدهن لا يقومن بقيمة وإن ثمنهن ثمن واحدة منهن ؛ ثم كتب كتابا إلى عبد الملك بن مروان يقول فيه : بعد الشاء الجميل وصلني كتاب أمير المؤمنين متعنى الله تعالى ببقائه يأمر فيه أن أشتري له ثلاث جوار مولدات نهداً بكار وأن أكتب له بصفة كل واحدة منهن وثمانها : أما الجارية الأولى -أطال الله بقاء أمير المؤمنين- فإنها لطيفة السوالف^(١)، عظيمة الروادف ، كحلأ العينين ، حمراء الوجنتين ، قد أنهدت نهداها والتفت فخذها كأنها ذهب شيب بفضة وهي كما قيل :
بيضاء في طرفها دعج يزيناها كأنها فضة قد شابها ذهب^(٢)

وثمانها يأمر المؤمنين ثلاثون ألف درهم . وأما الجارية الثانية : فإنها فائقة في الجمال معتدلة القد والكمال ، يشفى السقيم كلامها الرخيم ،

مأثر حسنة . وكان سفاكاً للدماء جباراً روع المسلمين . وأمره معروف ، ت[٩٥هـ - ٧١٤م] . انظر : وفيات الأعيان (١/١٢٣) ، مروج الذهب للمسعودي (٢/١٣٠).

(١) لطيفة السوالف ، جمع السالفة : صفحة العنق عند معلق القرط .

(٢) دعج : سواد العين مع سعتها .

وثنمها ياأمير المؤمنين ثلاثون ألف درهم . وأما الجارية الثالثة : فإنها فاترة الطرف ، لطيفة الكف ، عظيمة الردف ، شاكرة للقليل ، مساعدة للخليل ، بديعة الجمال كأنها خشف^(١) غزال ، وثنمها ياأمير المؤمنين ثمانون ألف درهم؛ ثم أطنب فى الشكر والثناء على أمير المؤمنين، وطوى الكتاب وختمه ودعا بالنخاسين ، وقال : تجهزوا للسفر بهؤلاء الجوارى لأمر المؤمنين. فقال أحد النخاسين : أيد الله الأمير إني رجل كبير وضعيف عن السفر ولى ولد ينوب عنى فتأذن لى أن أجهزه قال : نعم فتجهزوا وخرجوا . ففى بعض مسيرهم نزلوا ليستريحوا فى بعض الأماكن فنامت الجوارى ، فهبت ريح فانكشفت إحداهن وهى الكوفية فظهر نور ساطع ، وكان اسمها مكتوم فنظر إليها ابن النحاس وكان شابا جميلا ففتن بها لساعته فأتاها على غفلة من أصحابنا وجعل يقول :

أمكتوم عيني ما تمل من البكا وقلبي بإسهم الأسى يترشق
أمكتوم كم من عاشق قتل الهوى وقلبي رهين كيف لا أتعشق
فأجابته تقول :

لو كان حقا ماتقول لزرتنا ليلا إذا هجعت عيون الحسد^(٢)

فلما جن الليل انقض ابن النحاس بسيفه وأتى نحو الجارية ، فوجدها قائمة تنتظر قدمه ، فأخذها وأراد الهرب بها ففطن به أصحابه ، فأخذوه وكفروه وأوثقوه بالحديد ولم يزل مأسورا معهم إلى أن قدموا على

(١) خشف : ولد القطبى ، أول ما يولد .

(٢) هجعت : نامت .

عبد الملك. فلما قدموا بالجوارى بين يديه أخذ الكتاب وفتح وقرأه فوجد الصفة موافقة فى اثنتين ولم توافق فى الثالثة ورأى بوجهها صفرة وهى الجارية الكوفية ، فقال للنخاسين : ما بال هذه الجارية لم توافق الصفة التى ذكرها الحجاج فى كتابه وما هذا الاصفرار الذى بها وهذا الانتحال؟ فقالوا يأمر المؤمنين : نقول وعلينا الأمان ؟ إن صدقتم أمتم وأن كذبتم هلكتم، فخرج أحد النخاسين وأتى بالفتى وهو مصفد بالحديد، فلما قدموه بين أمير المؤمنين وأخبروه بما فعل بكى بكاءً شديداً وأيقن بالعذاب ثم أنشأ يقول:

أمير المؤمنين أتيت رغما	وقد شدت إلى عنقى يديا
مقرا بالقبيح وسوء فعلى	ولست بما رميت به برياً
فإن تقتل ففارق القتل ذنبى	وإن تعف فمن جود عليا

فقال له عبد الملك يافتى ما حملك على ما فعلت استخفافاً بنا أم هوى للجارية؟ فقال : وحقك يا أمير المؤمنين وعظيم قدرك ما هو إلا هوى بالجارية، فقال هى لك بما أعد لها فأخذ الغلام الجارية بكل ما أعدها أمير المؤمنين من الحلوى والجمان وسار بها فرحاً مسروراً ، حتى إذا كانا ببعض الطريق نزلا منزلاً ليلاً فتعانقا فلما أصبح الصباح وأراد الناس الرحيل نبهوهما فوجدا ميتين ، فبكوا عليهما ودفنوهما فى الطريق، ومضى خبرهما إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فبكى عليهما وتعجب من ذلك أهـ.

وهذه حكاية تشابهها فى العشق :

[٢٠] حكى عن عبد الله بن معمر القيسى أنه قال : حججت سنة

إلى بيت الله الحرام فلما قضيت حجتى عدت لزيارة قبر النبي ﷺ فبينما أنا

ذات ليلة جالس بين القبر والروضة إذ سمعت أنينا عاليا وحيننا باديا
فأنصت إليه فإذا هو يقول هذه الأبيات:

أشجاك نوح حمام السدر	فأهجن منك بلايل الصدر
أم عز نومك ذكر غانية	أهدت إليك وساوس الفكر
ياليلة طالت على دنف	يشكو الغرام وقللة الصبر
أسلمت من يهوى لحر جوى	متوقدا كثر وقد الجمر
فالبدر يشهد أنني كلف	مغرى بحب شبيهة البدر
ماكنت أحسبني بها شحنا	حتى بليت وكنت لا أدرى

قال ثم انقطع الصوت ولم أدر من أين جاءني فبقيت حائرا ، وإذا به
قد أعاد البكاء والحنين وأنشأ يقول هذه الأبيات :

أشجاك من ربا خيال زائر	والليل مسيود الذوائب عاكر
واقناد مقتلك الهوى برسيمه	واهتاج مقتلك الخيال الزاهر
ناديت ليلي والظلام كأنه	يم تلاطم فيه موج زاهر
والبدر يسرى فى السماء كأنه	ملك ترحل والنجوم عساكر
ياليل طلعت على محب ما له	إلا الصباح مساعد ومواز
فأجابنى مت حنن أنفك	إن الهوى لهو الهوان الحاضر

قال : فنهضت عند ابتدائه الأبيات أؤم الصوت فما انتهى لآخر
الآبيات إلا وأنا عنده ، فرأيت غلاما ماسال عذاره وقد خرق الدمع وجنتيه
خرقين ، فقلت : أنعمت غلاما. فقال : وأنت ، فمن الرجل ؟ قلت : عبد
الله بن معمر القيسى . قال : أفلك حاجة ؟ قلت له : كنت جالسا فى
الروضة فما راعنى فى هذه الليلة إلا صوتك فبنفسى أفديك ما الذى تجده

قال اجلس فجلست ، قال : أنا عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح
الأنصاري غدوت إلى مسجد الأحزاب فبقيت راكعا وساجدا ثم اعتزلت
غير بعيد ، فإذا بنسوة يتهادين كالأقمار وفي وسطهن جارية بديعة الجمال
كاملة الملاحة فوقفت على ، وقالت : يا عتبة ماتقول في وصل من يطلب
وصلك ؟ ثم تركتني وذهبت فلم أسمع لها خبرا ولا وقفت لها على أثر فأنا
حيران أتقل من مكان إلى مكان، ثم صرخ وانكب على الأرض مغشيا عليه؛
ثم أفاق كأنما صبغت ديباجتا خديه بورس ثم أنشد يقول هذه الأبيات :

أراكم بقلبي من بلاد بعيدة تراكم تروني بالقلوب على بعد
فؤادي وطرفي يأسفان عليكم وعندكم روحي وذكركم عندي
ولست ألد العيش حتى أراكم ولو كنت في الفردوس أو جنة الخلد

قال : فقلت له : يا ابن أخي تب إلى ربك واستقل من ذنبك ، فإن
بين يديك هول المطلع ، فقال : هيهات ما أنا بسال حتى يؤب
القارطان^(١) ولم أزل به حتى طلع الفجر فقلت : قم بنا إلى مسجد
الأحزاب، فقمنا إليه فجلسنا حتى صلبنا الظهر، وإذا بنسوة قد أقبلن وأما
الجارية فليست فيهن فقلن يا عتبة ما ظنك بطالبة وصلك وكاشفة ما بك
قال: ومابالها ؟ قلن : أخذها أبوها وارتحل إلى السماوة ، فسألتهن عن
الجارية، فقلن : هي ريا بنت الغطريف السلمي^(٢) فرفع رأسه وأنشد يقول:

(١) حتى يؤب القَارِطَان : أما رجلان يضرب بهما المثل فيمن لم يرجع من ذهابه .
(٢) رثا بنت الغطريف السُّلَمِيَّة : شاعرة من أهل العصر الأموي ، كانت تسكن بادية
السماوة بين الكوفة والشام ، وكان أبوها من أشرف قومه . انظر : أعلام النساء
(٤٧٣/١) .

خليلي ربا قد أجد بكروها وسار إلى أرض السماوة غيرها
خليلي إني قد عييت عن البكا فهل عند غيري عبرة أستعيرها

فقلت له : يا عتبة إني وردت بمال جزيل أريد به أهل الستر ووالله لأبذلنه أمامك حتى تبلغ رضاك وفوق الرضا قم بنا إلى مسجد الأنصار فقمنا حتى اشرفنا على مائهم ، فسلمت فأحسنوا الرد ثم قلت : أيها الملاء ماتقولون في عتبة وأبيه ؟ قالوا : من سادات العرب ، قلت : فإنه رمى بداهية من الهوى فأريد منكم المساعدة إلى السماوة قالوا : سمعا وطاعة ، فركبنا وركب القوم معنا حتى أشرفنا على منازل بني سليم فعلم الغطريف بمكاننا ، فخرج مبادرا واستقبلنا وقال : حيتهم يا كرام . قلنا : وأنت حييت إنا لك أضياف ، فقال : نزلتم بأكرم منزل ، ثم نادى يامعشر العبيد انزلوا فنزلت العبيد ففرشت الأنطاع^(١) والنمارق^(٢) وذبحت النعم والغنم فقلنا لسنا بذائقين طعامك حتى تقضى حاجتنا ، فقال : وما حاجتكم ؟ قلنا : نخطب ابنتك الكريمة لعتبة بن الحباب بن المنذر العالي المفخر الطيب العنصر ، فقال : يا أخي إن التي تخطبونها أمرها إلى نفسها وأنا أدخل وأخبرها ثم نهض مغضبا ودخل إلى ربا ، فقالت : يا أبت مالي أرى الغضب بين عينيكَ ، فقال : ورد على قوم من الأنصار يخطبونك مني ، فقالت : سادات كرام استغفر لهم النبي ﷺ فلمن الخطبة فيهم ؟ قال : لفتى يعرف بعتبة بن الحباب ، قالت : سمعت عن عتبة هذا أنه يفى بما وعد ويدرك ماطلب ، قال : أقسمت لا زوجتك به أبدا . فقد نمت إلى بعض حديثك معه ، قالت :

(١) الأنطاع ، جمع نطع : بساط من الجلد يفرد تحت الذبائح .

(٢) النمارق ، جمع نمرقة : الرسادة الصغيرة يتكا عليها .

ماكان ذلك ، قال : ولكن أقسمت أنى ماأزوجهك به ، قالت : أحسن إليهم
فإن الأنصار لايردون ردا قبيحا ، فأحسن الرد ، قال : بأى شئ ، قالت :
أغلظ عليهم المهر فإنهم يرجعون، قال : ماأحسن ماقلت : ثم خرج مبادرا
فقال : إن فتاة الحى قد أجابت ولكن أريد لها مهر مثلها فمن القائم به ؛
قال عبد الله، فقلت : أنا فقال : أريد لها ألف سوار من ذهب أحمر ،
 وخمسة آلاف درهم من ضرب هجر ، ومائة ثوب من الأبراد والحبر ،
 وخمسة أكرشة من العنبر قال : قلت لك ذلك فهل أجبت ؟ قال : أجل ؛
فأنفذ عبد الله نفرا من الأنصار إلى المدينة المنورة فأتوا بجميع ماضمنه ،
 وذبحت النعم والغنم واجتمع الناس لأكل الطعام ، قال : فأقمنا على هذا
الحال أربعين يوما . ثم قال : خذوا فتاتكم فحملناها على هودج وجهازها
 بثلاثين راحلة من التحف ، ثم ودعنا وانصرف وسرنا حتى إذا بقى بيننا
 وبين المدينة المنورة مرحلة خرجت علينا خيل تريد الغارة وأحسب أنها من
 بنى سليم فحمل عليها عتبة بن الخباب ، فقتل عدة رجال وانحرف راجعا
 وبه طعنة ثم سقط إلى الأرض ، وأتتنا النصره من سكان تلك الأرض
 ففردوا عنا الخيل ، وقد قضى عتبة نحبه. فقلنا : واعتبناه فسمعنا الجارية
 نقول : واعتبناه فألقت نفسها من فوق البعير وانكبت عليه وجعلت تصيح
 وتقول بحرقة :

تصبرت لا إنى صبرت وإنما أعلل نفسى إنها بك لاحقه
ولو أنصفت روحى لكانت إلى الردى أمامك من دون البرية سابقة
فما أحد بعدى وبعذك منصف خيلا ولانفس لنفس موافقه

ثم شهقت شهقة قضت نحبها ، واحتفرنا لهما قبرا واحدا وواريناها
فى التراب ورجعت إلى ديار قومى ، وأقمت سبع سنين عدت إلى الحجاز،

ووردت المدينة المنورة للزيارة ، فقلت : لأعودن إلى قبر عتبة فأتيت إلى القبر فإذا شجرة عليها عصائب حمر وصفرة وخضر ، فقلت : لأرباب المنزل ما يقال لهذه الشجرة ؟ فقالوا: شجرة العروسين فأقمت عند القبر يوما وليلة وانصرفت وكان آخر العهد به^(١).

ومثل ماتقدم من العشق وماورد في كتمان الهوى مع تحقق النظر
عند إعلانه :

[٢١] ماحكى عن بعض المعمرين من ذوى النعم ، قال : بينما أنا فى منزلى إذ دخل على خادم لى ومعه كتاب فقال : رجل بالباب دفع إلى هذا الكتاب ففتحته فإذا فيه شعر:

تجنبك البلاء ونلت خيرا ونجّاك المليك من الغموم
فعندك لو مننت شفاء نفسى وأعضاء ضنين من الكلوم

فقلت عاشق والله ، وقلت للخادم : اخرج وأتنى به فخرج فلم ير أحدا فتعجبت من أمره وأحضرت الحوارى كلهن من يخرج منهن ومن لم يخرج منهن وسألتهن عن ذلك فحلفن أنهن لا يعرفن من حديث هذا الكتاب شيئا ، فقلت : إنى لم أفعل ذلك بخلا بمن يهوى منك فمن عرف بحال هذا الفتى فهى هبة منى له بمالها ومائة دينار ، وكتبت جوابه أشكره على ذلك وأسأله قبولها ، ووضعت الكتاب فى جنب البيت ومائة دينار وقلت : من عرف شيئا فليأخذه . فمكث الكتاب والذهب أياما لا

(١) انظر : تزيين الأسواق فى أخبار العشاق للود الأنطاكى ص ١٦٤

يأخذه أحد فغمنى ذلك . قلت : هذا قنع ممن يحبه بالنظر فمنعت من يخرج من جوارى من الخروج فما كان إلا يوم أو بعض يوم إذ دخل على الخادم ومعه كتاب ، وقال : هذا من بعض أصدقائك بعث به إليك فقلت : اخرج واتنى به فخرج فلم يجده ففتحت الكتاب فإذا فيه :

ماذا أتيت إلى روح معلقة	عند التراقي وحادى الموت حاديتها
حشيت حاديتها ظلما فجذبها	فى السير حتى تخلت عن تراقيها
والله لو قيل لى تأتى بفاحشة	وإن عقباك دنيانا وما فيها
لقلت لا والذى أخشى عقوبته	ولا بأضعافها ماكنت آتيها
لولا الحياء لبحنا بالذى سكنت	بيت الفؤاد وأبدينا أمانيتها

قال فغمنى أمره فقلت للخادم : لا يأتينك أحد بكتاب إلا قبضت عليه، قال : وقرب موسم الحاج ، قال : فبينما أنا قد أفضت من عرفة وإذا فتى إلى جانبى على ناقة لم يبق منه إلا الخيال فسلم على فرددت عليه السلام ورحبت به ، فقال : أتعرفنى؟ فقلت : وما نكرك بسوء ، فقال : أنا صاحب الكتابين ، فانكيت عليه فقلت له : يا أخى لقد غمنى أمرك وأقلقنى كتمانك لنفسك ووهبت لك طلبتك ومائة دينار، فقال : بارك الله لك إنما أتيتك مستحلا من نظر كنت أنظره على غير حكم الكتاب والسنة ، فقلت: غفر الله لك وللجارية فسر معى إلى منزلى لأسلمها إليك ومائة دينار ومثلها فى كل سنة ، فقال : لا حاجة لى بذلك فألححت عليه فلم يفعل ، فقلت له : أما إذا أبيت فعرفنى من هى من جوارى لأكرمها من أجلك ماحييت فقال ماكنت لأسميها لأحد وودعنى وانصرف وكان آخر العهد به، انتهى.

ونعود إلى الكلام على ماوقع في زمان عبد الملك بن مروان

[٢٢] روى : أنه لما ولي الحجاج الحرمين الشريفين حظى عنده إبراهيم بن محمد بن طلحة فلما أراد الحجاج الرجوع إلى الشام إلى عبد الملك بن مروان أوفد معه إبراهيم بن محمد بن طلحة ، وقال : أتيتك برجل الحجاز في الشرف والأبوة والفضل والمروءة يأمر المؤمنين مع ما هو عليه من حسن الطاعة وجميل المناصحة والله لم يكن في الحجاز له نظير فبالله عليك ياأمير المؤمنين ألا فعلت معه من الخير ما هو مستحقه ، فقال عبد الملك : من هو ياأبا محمد ؟ قال له : إبراهيم بن محمد بن طلحة ، قال : ياأبا محمد لقد ذكرتنا بحق واجب ائذن له في الدخول فلما دخل على عبد الملك أمر بجلوسه في صدر المجلس ثم قال : إن أبا محمد الحجاج ذكر لنا مانعرفه من كمال مروءتك وحسن نصيحتك فلا تدع في صدرك حاجة إلا أعلمتنا بها حتى نقضيها لك ، ولانضيق شكر أبي محمد الحجاج فيك . قال إبراهيم : إن الحاجة التي نبغى بها وجه الله تعالى والتقرب إلى النبي ﷺ في القيامة نصيحة أمير المؤمنين ، قال : قل ، قال : لأقولها وبينى وبينك ثالث ، قال : ولاصديقك الحجاج ، قال : لا ، قال : قم ، فقام خجلا وهو لايعرف أين تطأ رجله .

فلما مضى ، قال له : هات نصيحتك ، فقال إبراهيم : ياأمير المؤمنين وليت الحجاج الحرمين الشريفين وفيهما من تعرف من أولاد المهاجرين والأنصار وصحابة رسول ﷺ مع ما تعلمه من ظلمه وفسقه وجوره وبعده من الحق ، وقربه به إلى الباطل ، يسومهم الخسف ويطوهم بالعسف ، فليت شعري أى جواب أعدته لرسول الله ﷺ إذا سألك الله في عرصات القيامة عن ذلك فبالله عليك ياأمير المؤمنين ألا عزلته وادخرتها قربة إلى الله

تعالى ، فقال عبد الملك : لقد ظن الحجاج الخير بغير أهله ؛ ثم قال : يا إبراهيم قم فقممت على أنحس حال وخرجت من المجلس وقد اسودت الدنيا في وجهي ، فتبعني حاجبه وقبض على زندي وجلس بي في الدهليز ، ثم دعا عبد الملك بالحجاج ، فدخل فمكثا طويلا فما شككت أنهما يتشاوران في قتلي ثم دعاني فقممت ودخلت فوفاني الحجاج خارجا فعانقني ، وقال : جزاك الله عني خيرا في هذه النصيحة أما والله لئن عشت لأرفعن قدرك ، وتركني وخرج ؛ ودخلت وأنا أقول يهزأ بي وهو معذر ، فدخلت على عبد الملك فأجلسنى مجلسي الأول ثم قال لى : قد علمت صدقك وقد عزلته عن الحرمين ووليته العراق وأعلمته أنك استقلت له الحجاز واستدعيت له العراق وأنك تطلب له الزيادة في الأعمال وهو يظن أنك السبب في توليته العراق وقد تهلل وجهه فرحا بذلك ، فسر معه أيضا أينما توجه يولك خيرا ولا تقطع نصيحتك عنا والله أعلم^(١).

[٢٣] وفي مروج الذهب للمسعودي^(٢) وشرح السيرة وغيرهما : أن أم الحجاج بن يوسف ، وهى : الفارعة بنت همام ولدته مشوها لادبر له فنقب دبره وأبى أن يقبل ثدى أمه أو غيرها فأعياهم أمره ، فيقال : إن الشيطان تصور لهم فى صورة الحارث بن كلدة^(٣) ، فقال : ما خبركم ؟

(١) انظر : الشهب اللامعة فى السياسة النافعة ، لابن رضوان الملقى ص ١٢٨ .

(٢) انظر : مروج الذهب (١٣٠/٢) ، والمسعودى هو : أبر الحسن على ، مؤرخ ورحالة من أهل بغداد ، من ذرية بن مسعود رضى الله عنه ، ت [٣٤٦هـ = ٩٥٧م] .

(٣) الحارث بن كلدة الثقفى : طبيب العرب فى عصره ، وأحد الحكماء المشهورين ، من أهل الطائف . مولده قبل النبى ﷺ وبقى أيام رسول الله ، وأيام أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية وكان النبى يأمر من به علة أن يأتيه فيطيب عنده ، ت [٥٠هـ = ٦٧٠م] . انظر : طبقات الأطباء (١٠٩/١) .

فقالوا : ولد ليوسف الثقفى من الفارعة ولد وقد أبى أن يقبل ثدى أمه ، فقال : اذبحوا له تيسا أسود وألقوه دمه ثم اذبحوا له أسود سالخا وأولغوه من دمه وأطلوا به وجهه ثلاثة أيام ، ففعلوا فقبل الثدى فى اليوم الرابع فكان لا يصبر عن سفك الدم وارتكاب أمور لا يقدر عليها غيره أه^(١) .

[٢٤] من حياة الحيوان^(٢) فى حرف التاء^(٣) وحكى : أن الحجاج انفرد يوما من عسكره فلقى أعرابيا ، فقال له : ياوجه العرب كيف الحجاج؟ فقال : ظالم غاشم . قال : هلا شكوته إلى عبد الملك بن مروان ، قال : أظلم وأغشم عليهما لعنة الله . فبينما هو كذلك إذ تلاحقت به عساكره فعلم الأعرابى أنه الحجاج ؛ فقال : الأعرابى : أيها الأمير السر الذى بينى وبينك لا يطلع عليه أحد إلا الله . فتبسم الحجاج وأحسن إليه وانصرف .

[٢٥] وذكر أهل التواريخ : أن الحجاج بن يوسف الثقفى ، سهر ليلة وعنده جماعة منهم خالد بن عرفطة ، فقال : ياخالد اتنى بمحدث من المسجد ، والناس إذ ذاك يطلبون المقام فى المسجد ، فانتهى إلى شاب قائم يصلى فجلس حتى سلم ، ثم قال : أجب الأمير قال : أبعثك الأمير إلى قاصد ؟ قال : نعم فمضى معه حتى انتهى إلى الباب ، فقال له خالد : كيف أنت ومحادثة الأمير ؟ قال : سيحدثنى كما يحب إن شاء الله تعالى ،

(١) انظر : مروج الذهب للمسعودى (١/١٣٠) .

(٢) صاحب كتاب حياة الحيوان : محمد بن موسى بن عيسى بن على الدميرى ، أديب من فقهاء الشافعية من أهل دميرة (بمصر) ولد بالقاهرة وتوفى بها [٨٠٨هـ - ٨٤٠هـ] .

(٣) انظر : حياة الحيوان الكبرى للدميرى ، حرف التاء (١/٢٤٥) .

فلما دخل عليه ، قال له الحجاج : هل قرأت القرآن ؟ قال : نعم وقد حفظته ، قال : فهل تروى شيئا من الشعر ؟ قال : ما من شاعر إلا وأروى عنه ، قال : فهل تعرف من أنساب العرب ووقائعها ؟ قال : لا يذهب عني شيء من ذلك ، فلم يزل يحدثه بكل ما أحب حتى إذا هم بالانصراف ، قال : يا خالد مر للفتى بيرذون و غلام ووصيفة وأربعة آلاف درهم ، فقال الفتى : أصلح الله الأمير بقى من حديثي أطرفه وأعجبه فعاد الحجاج إلى مجلسه ، وقال : حدثني ، فقال : أصلح الله الأمير هلك والدى وأنا طفل صغير فنشأت في حجر عمى وله ابنة بسنى وكنا فى التصايبى من الصبا وما كنا فيه أعجوبة ، حتى إذا بلغت وبلغت تنافس الخطاب فيها وبذلوا فيها أموالا لجمالها وكمالها فلما رأيت ذلك خامرنى السقم وضنيت ورميت على الفراش ثم عمدت إلى خاية عظيمة فملأتها رملا وصخرًا وقبرت رأسها ودفنتها تحت فراشى فلما ، تم على ذلك أيام بعثت إلى عمى ، فقلت : يا عمى إني كنت أريد السفر فوقعتم على مال عظيم وخفت أن أموت ولا يعلمه أحد فإن حدث بى أمر فأخرج به ، وأعتق عني عشر نسما ، واحجج عني عشر حجج ، وجهز عني عشر رجال بخيولهم وأسلحتهم ، وتصدق عني بألف دينار ، ولاتبال يا عمى فإن المال كثير . فلما سمع عمى مقالتي أتى امرأته فأخبرها بقولى فما كان بأسرع من أن أقبلت بجواريتها حتى دخلت على فوضعت يدها على رأسى ؛ ثم قالت : والله يا ابن أخي ما علمت بسقمك وما حل بك حتى أخبرنى أبو فلان الساعة وأقبلت تلاطفنى وتعالجنى بالأدوية وحملت لى لطائف وردت الخطاب عن ابنتها . فلما رأيت ذلك تحاملت ثم بعثت إلى عمى أن الله عز وجل قد أحسن إلى وعافانى فابتغ لى جارية من خصالها وكمالها كيت وكيت ولا يسألونك

شيئا إلا أعطيته ، فقال يابن أخى ما يمنعك من ابنة عمك ، فقلت : هى من أعز خلق الله تعالى على غير أنى قد خطبتها قبل ذلك فامتنعت ، قال : كلا إن الامتناع كان من قبل أمها وهى الآن سمحت ورضيت بذلك ، فقلت : شأنك فرجع إلى امرأته فأخبرها بقولى فجمعت عشيرتها وزوجونى إياها ، فقلت : عجل على بابنة عمى كيف شئت ثم أريك الخاية فأهديت إلى ولم تدع شيئا يصنع بإشراف النساء إلا فعلته ثم زفت ابنتها على وأحضرتها بكل ما وجدت إليه سبيلا ؛ وأخذ عمى ؛ متاعا من التجار بعشرة آلاف درهم وكان يأتينا فى كل صباح من قبل أبويها لطائف وتحف مدة فلما كان بعد ذلك بأيام أتانى عمى ؛ وقال : يابن أخى إنا قد أخذنا من التجار متاعا بعشرة آلاف درهم وليسوا صابرين على حبس الثمن ، قلت : شأنك والخابية فمر مسرعا حتى جاء بالرجال والجمال فاستخرجها وحملها ومر مسرعا بها إلى منزله . فلما فتحها وجد فيها ما علمت فما كان بأسرع من أن جاءت أمها بحواريبها فلم تدع فى منزلى كثيرا ولا قليلا ولا حملته فبقيت مهانا على الأرض ، وجفتنا كل الجفاء فهذا حالى أصلح الله الأمير فأنا من خجلى وضيق صدرى آوى إلى المساجد؛ فقال الحجاج : يا خالدا مر للفتى بتياب ديباج وفرس أرمنية وجارية وبرذون و غلام وعشرة آلاف درهم ، وقال : يافتى اغد إلى خالدا غدا حتى تستوفى منه المال فخرج الفتى من عند الحجاج قال : فلما انتهيت إلى باب دارى سمعت ابنة عمى تقول : ياليت شعرى ما أبطأ يابن عمى أقتل أم مات أم عرض له سبع ، قال : فدخلت عليها وقلت يابنة عمى أبشرى وقرى عينا فإنى دخلت على الحجاج فكان من القصة كيت وكيت وحكىتها لها ما كان من أمرى فلما سمعت الفتاة مقالتي ، لطمت وجهها وصاحت فسمع أبوها وأمها

وأخواتها صراخها فدخلوا عليها وقالوا لها : ماشأنك ؟ فقالت لأبيها : لا وصل الله رحمك ولا جزاك عنى وعن ابن أخيك خيرا جفوته وضيعته حتى أصابته الخفة وذهب عقله اسمع مقالته فقال العم يا ابن أخى ما حالك ؟ فقلت : والله ما بى من بأس إلا أنى دخلت على الحجاج وذكر له من أمره ما كان وأنه أمر له بعال جزيل ، فقال العم لما سمع مقالته هذه مرة صفراء ثائرة فباتوا يحرسونه تلك الليلة فلما أصبحوا بعثوا إلى المعالج فجعل يعالجه ويسعطه مرة ويسهله أخرى ، فيقول الفتى : والله ما بى من بأس وإنما دخلت على الحجاج فكان كيت وكيت فلما رأى الفتى أن ذكر الحجاج لا يزيده إلا بلاء كف عنه وعن ذكره ؛ ثم قال له ماتقول فى الحجاج قال مارأيتة ثم خرج المعالج فقال لهم قد ذهب عنه الأذى ولكن لاتعجلوا بحل قيده فبقى الفتى مقيدا مغلولا .

فلما كان بعد أيام ذكره الحجاج ، فقال ياخالد : ما فعل الفتى ؟ فقال أصلح الله الأمير مارأيتة منذ خرج من حضرة الأمير ، قال : فابعث إليه أحدا ، قال : فبعث إليه خالد حرسيا فمبر الحرسى على العم فقال له : ما فعله ابن أخيك فإن الحجاج يطلبه ، قال : إن ابن أخى لفى شغل عن الحجاج قد ابتلى ببلاء فى عقله ، قال : لأدرى ماتقول لابد من الذهاب به الساعة ؛ فدخل عليه العم فقال : يا ابن أخى إن الحجاج قد بعث فى طلبك أفاحلك ؟ قال : لا إلا بين يديه فحمل فى قيوده وغله على ظهور الرجال حتى أدخل على الحجاج ، فلما نظره من بعد جعل يرحب به حتى انتهى اليه فكشف قيده وغله وقال : أصلح الله الأمير إن آخر أمرى أعجب من أوله وحدثه بحديثه فعجب الحجاج ، وقال : ياخالد أضعف للفتى ما كنا

قد أمرنا له به ، فقبض المال أجمع وحسن حاله ولم يزل مسامراً للحجاج حتى مات أهـ.

[٢٦] قيل : وحضر أعرابي عند الحجاج ، فقدم الطعام فأكل الناس منه ثم قدمت الحلوى فترك الحجاج الأعرابي حتى أكل منها لقمة ثم ، قال: من أكل من الحلوى ضربت عنقه فامتنع الناس من أكلها وبقي الأعرابي ينظر إلى الحجاج مرة وإلى الحلوى مرة ثم ؛ قال : أيها الأمير أوصيك بأولادى خيراً ثم اندفع يأكل ، فضحك الحجاج حتى استلقى على قفاه وأمر له بصلة.

[٢٧] وحكى : أن الحجاج أمر صاحب حراسته أن يطوف بالليل فمن وجدته بعد العشاء ضرب عنقه ، فطاف ليلة فوجد ثلاثة صبيان يتمايلون وعليهم أثر الشراب فأحاط بهم ؛ وقال لهم : من أنتم حتى خالفتم الأمير ؟ فقال الأول :

أنا ابن من دانت الرقاب له ما بين معزومها وهاشمها
تأتى إليه الرقاب صاغرة يأخذ من مالها ومن دمها
فأمسك عن قتله ، وقال : لعله من أقارب أمير المؤمنين .

وقال الثانى :

أنا ابن الذى لا ينزل الدهر قدره وإن نزلت يوما فسوف تعود
ترى الناس أفواجا إلى ضوء ناره فمنهم قيام حولها وقعود
فأمسك عن قتله ، وقال : لعله من أشرف العرب .

وقال الثالث :

أنا ابن الذى خاض الصفوف بعزمه وقومها بالسيف حتى استقامت
ركاباه لاتنفك رجلاه منهما إذا الخيل فى يوم الكريهة ولت

فأمسك عن قتله ، وقال : لعله من شجعان العرب فلما أصبح رفع
أمرهم إلى الحجاج فأحضرهم وكشف عن حالهم ، فإذا الأول ابن حجام ،
والثانى ابن فوال ، والثالث ابن حائك ، فتعجب الحجاج من فصاحتهم ،
وقال : لجلسائه علموا أولادكم الأدب فوالله لولا الفصاحة لضربت أعناقهم
ثم أطلقهم وأنشد :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبى

[٢٨] وقيل : أمر الحجاج بقتل أسرى ، فقتل منهم جماعة ؛ فقال
رجل منهم ، وقد عرض للقتل : يا حجاج إن كنا أسأنا فى الذنب فما
أحسنست فى العفو والله تعالى يقول ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ
حَتَّى إِذَا أَثْخَتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُثَاقَ فَمَا مِنْهُ بَعْدَ وَإِنَّا فِدَاءٌ﴾ [محمد:٤] فهذا
قول الله تعالى فى الكفار فكيف بالمسلمين، وقد قال الشاعر:

وما نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل الغلائل

فقال الحجاج : أف لهؤلاء الجيف ، والله لو قال هؤلاء مثل ما قال
هذا الرجل ما قتلت منهم أحدا ولكن أطلقوا بقيتهم .

[٢٩] قال الراوى : ولما ولى الحجاج العراق قال : على بالمرأة
الحرورية فلما حضرت قال لها كنت بالأمس فى وقعة الزبير تحرضين الناس
على قتل رجالى ونهب أموالى ، قالت : نعم قد كان ذلك يا حجاج فالتفت

الحجاج إلى وزرائه ، وقال : ماترون فى أمرها ؟ فقالوا : عجل بقتلها ، فضحكت المرأة ، فاغتاط الحجاج وقال : ما أضحكك ؟ قالت : وزراء أخيك فرعون خير من وزرائك هؤلاء ، قال : وكيف ذلك قالت : لأنه استشارهم فى موسى ، فقالوا : أرجه وأخاه أى أنظره إلى وقت آخر وهؤلاء يسألونك تعجيل قتلى فضحك الحجاج وأمر لها بعتاء وأطلقها .

[٣٠] وحكى : أن هند بنت النعمان^(١) كانت أحسن نساء زمانها فوصف للحجاج حسنها فخطبها وبذل لها مالا جزيلا وتزوج بها وشرط لها عليه بعد الصداق مائتى ألف درهم ، ودخل بها ثم إنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة مدة طويلة ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق فأقامت معه ماشاء الله ثم دخل عليها فى بعض الأيام وهى تنظر فى المرأة تقول :

وما هند إلا مهرة عريضة سلاله أفراس تحللها بغل
فإن ولدت فحلاً فله درها وإن ولدت بغلاً فحاء به ابغل

فلما سمع الحجاج كلامها انصرف راجعا ولم يدخل عليها ولم تكن علمت به فأراد الحجاج طلاقها ، فأنفذ إليها عبد الله بن طاهر وأنفذ لها معه مائتى ألف درهم وهى التى كانت لها عليه ، وقال : يا ابن طاهر طلقها بكلمتين ولا تزدد عليهما فدخل عبد الله بن طاهر عليها فقال لها : يقول لك أبو محمد الحجاج كنت فبنت ؛ وهذه المائتا ألف درهم التى كانت لك

(١) هند بنت النعمان بن بشير الأنصارية : شاعرة فصيحة وأديبة برزة ، كانت ذات حسن وجمال . وكانت عند روح بن زنباع ، قبل أن يتزوجها الحجاج . انظر : أعلام النساء (٢٥٩/٥) .

قبله. فقالت : اعلم يا بن طاهر إنا والله كنا فما حمدنا ثم بنا فما ندمنا ،
وهذه المائتا ألف هي لك بشارتك بخلاصى من كلب ثقيف ؟

ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووُصف
له جمالها فأرسل إليها يخطبها لنفسه فأرسلت إليه كتاباً تقول فيه : بعد
الثناء عليه : اعلم يا أمير المؤمنين : إن الكلب ولغ فى الإناء . فلما قرأ عبد
الملك بن مروان الكتاب ضحك من قولها ، وكتب إليها يقول : إذا ولغ
الكلب فى إناء أحدكم فليغسله سبعا إحداهن بالتراب ، ففُسلُ الإناء يحل
الاستعمال . فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة ، فكتبت
إليه تقول بعد الثناء عليه : اعلم يا أمير المؤمنين إنى لأجرى العقد إلا
بشرط، فإن قلت : ما الشرط ؟ أقول : أن يقود الحجاج محملى من
المعرة^(١) إلى بلدك التى أنت فيها ويكون ماشيا حافيا بحليته التى كان فيها
أولا . فلما قرأ ذلك الكتاب عبد الملك ضحك ضحكا شديدا وأرسل إلى
الحجاج يأمره بذلك . فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب ولم
يخالف وامثل الأمر وأرسل الحجاج إلى هند يأمرها بالتحجز فتحجزت
وسار الحجاج فى موكبه حتى وصل المعرة بلسد هند فركبت فى محمل
وركب حولها جواربها وخدمها فترجل الحجاج وهو حاف وأخذ بزمام
البعير يقوده ويسير بها ، فأخذت تهزأ عليه وتضحك مع الهيفاء دايتها؛ ثم
إنها قالت لدايتها: يادائى اكشفى لى ستارة المحمل لنشم رائحة النسيم
فكشفته فوقع وجهها فى وجهه فضحكت عليه فأنشد يقول :

(١) المَعْرَةُ هي : معرة النعمان ، مدينة فى سوريا ، وهى مركز رأس أبى العلاء المعرى.

فإن تضحكى ياهند يارب ليلة تركك فيها كالقواء المفرج^(١)
فأجابته تقول :

وما نبالى إذا أرواحنا سلمت بما فقدناه من مال ومن نسب^(٢)
فالمال مكتسب والعز مرتجع إذا النفوس وقاها الله من عطب

ولم تزل تلعب وتضحك إلى أن قربت من بلد الخليفة ؛ فلما قربت
من البلد رمت من يدها ديناراً على الأرض وقالت : يا حمّال إنه سقط منّا
درهم. قال : بل دينار فقالت : الحمد لله سقط منّا درهم فعوضنا الله
ديناراً . فخجل الحجاج وسكت ولم يرد جواباً ثم دخل بها على عبد
الملك بن مروان فتزوج بها وكان من أمرها ما كان^(٣) .

[٣١] ذكر في حياة الحيوان^(٤) قال عون بن أبي شداد العبدى :
بلغنى أن الحجاج بن يوسف لما ذكر له سعيد بن جبير^(٥) أرسل قائداً من
الشام يسمى المتلمس بن الأحوص ومعه عشرون رجلاً ، فينما هم يطلبونه

(١) القواء المفرج ، المراد : أنه أهملها وتركها وحيدة .

(٢) النّشَب : الديار والأماكن .

(٣) انظر : أخبار النساء لابن القيم ص ٦٥ .

(٤) انظر حياة الحيوان ، حرف اللام (٢/٤٢٦) .

(٥) سعيد بن جبير الأسدى ، أبو عبد الله : من علماء التابعين العباد ، أخذ العلم عن عبد
الله بن عباس ، ثم كان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه قال : أتسألوننى وفيكم
ابن أم دهماء يعنى سعيداً ، قال أحمد بن حنبل ، لما قتله الحجاج : قتل الحجاج
سعيداً وما على وجه الأرض أحداً إلا وهو مفتقر إلى علم سعيد ، ت [٩٥هـ -
٧١٤م] . انظر : طبقات ابن سعد (٦/١٧٨) ، وفيات الأعيان (١/٢٠٤) .

إذا هم براهب فى صومعة له فسأله عنه ، فقال الراهب : صفوه فوصفوه فدلهم عليه ، فانطلقوا فوجدوه ساجدا يناجى ربه بأعلى صوته فدنوا منه وسلموا عليه فرفع رأسه فأتى بقية صلاته ثم رد عليهم السلام ، فقالوا : أرسل الحجاج إليك فأجبه فقال : لا بد من الإجابة ؟ قالوا : لا بد ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ ثم قام فمشى معهم حتى انتهى إلى دير الراهب .

فقال الراهب : يامعشر الفرسان أصبتم صاحبكم ؟ قالوا : نعم ، قال : اصعدوا إلى الدير فإن الأسد واللبة يأويان إلى الدير ففعلوا الدخول قبل المساء ففعلوا ذلك ، وأبى سعيد أن يدخل الدير ، فقالوا : ما نراك إلا تريد الهرب ، قال : لا ولكن لا أدخل منزل مشرك أبدا ، قالوا : فإننا لاندعك فإن السباع تقتلك ، قال سعيد : إن معى ربي يصرفها عني ويجعلها حرسا لى من كل سوء إن شاء الله تعالى ، قالوا : أفأنت نبي من الأنبياء ؟ قال : ما أنا من الأنبياء ولكن عبد من عبيد الله خاطئ مذنب ، قالوا احلف لنا إنك لاتبرح ، فحلف لهم . فقال لهم الراهب : اصعدوا الدير وأوتروا القسي^(١) لتنفروا السباع عن هذا العبد الصالح ، فإنه كره الدخول على فى الصومعة فدخلوا وأوتروا القسي فإذا هم بلبوة أقبلت ودنت من سعيد وتحككت وتمسحت به ثم ربيضت قريبا منه ، ثم أقبل الأسد فصنع مثل ذلك ، فلما رأى الراهب ذلك وأصبحوا نزل إليه وسأله عن شرائع الإسلام وسنن رسول الله ﷺ ففسر له سعيد ذلك كله فأسلم الراهب وحسن إسلامه ، وأقبل القوم على سعيد يعتذرون إليه ويقبلون يديه ورجليه يأخذون التراب الذى

(١) أوتروا القُسى : استعدوا للرمى بالسهم .

وطئه بالليل وصلى عليه وقالوا ياسعيد حلفنا الحجاج بالطلاق إن نحن رأيناك لا ندعك حتى نشخصك إليه فمرنا بما شئت قال : امضوا لشأنكم فإنه لا بد من الرجوع لخالقي ولا راد لقضائه فسار حتى وصلوا واسط فلما انتهوا ، قال لهم سعيد : يامعشر القوم قد تحرمت بكم وصحبتكم ولست أشك أن أجلى قد حضر وأن المدة قد انقضت ، فدعوني الليلة آخذ أهبة الموت وأستعد لمنكر ونكير وأذكر عذاب القبر وما يحثى على من التراب فإذا أصبحتم فالميعاد بيني وبينكم المكان الذى تريدون ، فقالوا لبعضهم : لا نريد أثراً بعد عين ، وقال بعضهم : قد بلغتكم أمنيتمكم واستوجبتكم جوائزكم من الأمير فلا تعجزوا عنه ، فقال بعضهم : هو على أدفعه إليكم إن شاء الله تعالى فنظروا إلى سعيد فدمعت عيناه واغبر لونه ولم يأكل ولم يشرب ولم يضحك منذ لقوه فقالوا بأجمعهم : ياخير أهل الأرض ليتنا لم نعرفك ، ولم نرسل إليك ، الويل لنا ، كيف ابتلينا ، ماعذرنا عند خالقنا يوم المحشر الأكبر، والمجاوبة له ، وقال كفيله : أسالك ياسعيد بالله ألا مازودتنا من دعائك وكلامك ، فإننا لانلقى مثلك أبدا فدعا لهم سعيد ، ثم خلوا سبيله فغسل رأسه ومدرعته وكساءه وهم مختفون الليل كله .

فلما انكشف عمود الصبح جاءهم سعيد بن جبير فقرع الباب ، فقالوا: صاحبكم ورب الكعبة فنزلوا إليه وبكوا معه طويلا ثم ذهبوا به إلى الحجاج ، فدخل عليه المتلمس فسلم وبشره بقدوم سعيد بن جبير ؛ فلما مثل بين يديه ، قال : ما اسمك؟ قال : سعيد بن جبير . قال أنت شقى بن كسير. قال : بل أمى كانت أعلم باسمى منك . قال : شقيت أنت وشقيت أمك . قال : الغيب يعلمه غيرك . قال : لأبدلنك بالدنيا نار . قال : لو

علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلها . قال : فما قولك فى محمد؟ قال :
 نبى الرحمة قال: فما قولك فى على أفى الجنة أم فى النار قال لو دخلتها
 وعرفت أهلها عرفت من فيها قال : فما قولك فى الخلفاء قال : لست
 عليهم بوكيل. قال : فأيهم أحب إليك ؟ قال : أرضاهم للخالق . قال :
 فأيهم أرضى للخالق ؟ قال : علم ذلك عند الذى يعلم سرهم ونجواهم .
 قال : فما بالك لاتضحك قال أضحك مخلوق من طين والطين تأكله النار
 فما بالنا نضحك . قال : لم تستو القلوب . قال : ثم أمر الحجاج باللؤلؤ
 والزبرجد والياقوت فوضعه بين يديه، فقال سعيد : إن كنت جمعت لتفتدى
 به من فزع يوم القيامة فصالح والإ ففرعة واحدة تذهل كل مرضعة عما
 أرضعت ولاخير فى شئ جمع لدنيا إلا ما طاب وزكا ؛ ثم دعا الحجاج
 بآلات اللهو فبكى سعيد . فقال الحجاج: ويلك ياسعيد اختر أى قتلة تريد.
 قال: اختر لنفسك يا حجاج فوالله لاتقتلنى قتلة إلا قتلك الله مثلها فى
 الآخرة . قال : أتريد أن أعفو عنك . قال : إن كان العفو من الله فبلى ،
 وأما أنت فلا . قال : اذهبوا به فاقتلوه فلما خرج من الباب ضحك فأخبر
 الحجاج بذلك فأمر برده ، وقال: ما أضحكك ؟ قال : عجبت من جرأتك
 على الله وحلم الله عليك ، فأمر بالنطع فبسط بين يديه ، وقال : اقتلوه .
 قال : ﴿وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من
 المشركين﴾ [الأنعام: ٧٩] قال : وجهوه لغير القبلة. قال سعيد : ﴿فأينما
 تولوا فثم وجه الله﴾ [البقرة: ١١٥] قال : كبوه لوجهه. فقال سعيد : ﴿منها
 خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ [طه: ٥٥] فقال
 الحجاج: اذبحوه. فقال سعيد : أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا

عبده ورسوله اللهم لاتسلطه على أحد يقتله بعدى ، فذبح على النطع رحمه
الله تعالى فكان رأسه بعد قطعه يقول لا إله إلا الله ، وعاش الحجاج بعدها
خمسة عشرة يوما وذلك فى سنة خمس وتسعين وكان عمر سعيد رضى
الله تعالى تسعا وأربعين سنة، والله سبحانه وتعالى أعلم^(١) .

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم (٢٧٢/٤) .

٣- فصل

خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان^(١)

كان يختم القرآن في ثلاث ، وكان يختم في رمضان سبع عشرة ختمة، قال إبراهيم بن علي^(٢) : كان يعطيني أكياس الدنانير أقسمها في الصالحين ، وكان يقول: لولا أن الله عز وجل ذكر اللواط في كتابه العزيز ماظننت أن أحدا يفعله .

[٣٢] قال الحافظ بن عساكر^(٣) : كان الوليد عند أهل الشام أفضل من خلفائهم؛ بنى المسجد بدمشق وفرض للمجذومين مايكفيهم ، وقال لاتسألوا الناس ، وأعطى كل مقعد خادما ، وكل أعمى قائدا ؛ وذكر أن جملة ماأنفق على المسجد الأموي أربعمئة صندوق في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار وكان فيه ستمائة سلسلة ذهب للقناديل ، وما كمل بناءه الا أخوه سليمان لما ولي الخلافة وفعل خيرات كثيرة وآثارا حسنة

(١) الوليد بن عبد الملك بن مروان ، ولي الخلافة بعد وفاة أبيه (٨٦ هـ) امتدت في زمنه حدود الدولة الإسلامية إلى بلاد الهند ، فتركستان ، فأطراف الصين شرقا . وأول من أحدث المستشفيات في الإسلام ، وجعل لكل أعمى قائدا ، يتقاضى نفقاته من بيت المال ، وبنى الجامع الأموي بدمشق . وكانت مدة خلافته (تسع سنوات وثمانية أشهر) وكان نقش خاتمه "يا وليد إنك ميت" ، ت[٩٦هـ - ٧١٥م] .

(٢) انظر : تاريخ بغداد (٢٠/٦) .

(٣) الحافظ بن عساكر : علي بن أبي محمد الحسن بن هبة الله .، محدث الشام في وقته، ومن أعيان فقهاء الشافعية ، له تاريخ دمشق ، ت[٥٧١هـ] . انظر : وفيات الأعيان (٣٠٩/٣-٣١١) .

وبعد هذا كله ، فقد روى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال لما أدرج في أكفانه غلت يده إلى عنقه نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة ونسأله حسن الخاتمة ، انتهى من حياة الحيوان^(١) .

(١) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١٠٠/١) .

٤ - فصل

خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان^(١)

[٣٣] فمما يذكر من محاسنه^(٢) : أن رجلا دخل عليه ، فقال :
ياأمير المؤمنين أنشدك الله والأذان ، فقال سليمان : أما أنشدك الله فقد
عرفناه فما الأذان ؟ قال : قوله تعالى ﴿ فَأَذِّنْ مَوْذِنَ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى
الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٤] فقال سليمان : ما ظلامتك؟ قال : ضيعتى الفلانية
غلبنى عليها عاملك فلان ؛ فنزل سليمان عن سريره ورفع البساط ووضع
خده على الأرض وقال : والله لارفعت خدى من الأرض حتى يكتبَ له
بردى ضيعته فكتب الكتاب وهو واضع خده على الأرض . ولما سمع كلام
ربه الذى خلقه وخَوَّلَه فى نعمه ، خشى من لعن الله وطرده ؛ رحمه الله .

قيل : إنه أطلق من سجن الحجاج ثلاثمائة ألف نفس ما بين رجل
وامرأة ، وصادر آل الحجاج ، واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيرا
مشيرا ، وكان شرها فى الأكل نكاحا . قال بن خلكان فى ترجمته^(٣) : إنه

(١) سليمان بن عبد الملك بن مروان ، ولى الخلافة يوم وفات أخيه الوليد (٩٦هـ) وكان
بالرمله ، فلم يتخلف أحد عن مبايعته . أطلق الأسرى وأخلى السجون ، وعفا عن
المجرمين ، وجهاز جيشا كبيرا وسيره فى السفن بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك
لحصار القسطنطينية . وفى عهده فتحت جرجان ، وطبرستان . وتوفى فى دابق ، بين
حلب والمرة . وكانت مدة خلافته ستان وثمانية أشهر ، ت [٩٩هـ - ٧١٧م] .

(٢) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١/١٠١) .

(٣) انظر : وفيات الأعيان (٢/٤٢٠ رقم ٢٧٩) .

كان يأكل كل يوم نحو مائة رطل شامي . قال محمد بن سيرين^(١) :
رحمه الله سليمان افتتح خلافته بخير وختمها بخير : افتتحها بإقامة الصلاة
لمواقبتها الأولى ، وختمها باستخلافه لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

[٣٤] وقال أبو سويد حدثني أبو زيد الأسدي قال^(٢) : دخلت على
سليمان بن عبد الملك وهو جالس في إيوان مبلط بالرخام الأحمر مفروش
بالدياج الأخضر في وسط بستان ملتف قد أثمر وأنع وعلى رأسه وصائف
كل واحدة منهن أحسن من صاحبها وقد غابت الشمس وغنت الأطيار
فتحاوبت وصفقت الرياح على الأشجار فتمايلت . فقلت : السلام عليك
أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ، وكان مطرقا فرفع رأسه ، وقال : يا أبا زيد
في مثل هذا الحين تصالحنا ، فقلت : أصلح الله الأمير أو قامت القيامة ؟
قال : نعم على أهل المحبة ؛ ثم أضرق مليا ورفع رأسه ، فقال : يا أبا زيد
ما يطيب في يومنا هذا؟ قلت : أعز الله الأمير؛ قهوة حمراء في زجاجة
بيضاء تناولها عادة هيفاء ملفوفة لفاء أشربها من كفها وأمسخ فمي بخدها.
فأضرق سليمان مليا لا يرد جوابا ، تنحدر من عينيه عبرات بلا شهيق . فلما
رأت الوصائف ذلك تنحين عنه ، ثم رفع رأسه ، فقال : يا أبا زيد حضرت
في يوم انقضاء أجلك ومنتهى مدتك وتصرم عمرك ، والله لأضربن عنقك
أولتخبرني ما آثار هذه الصفة من قلبك ؟ قلت : نعم أيها الأمير كنت
جالسا على باب أخيك سعيد بن عبد الملك ، فإذا أنا بجارية قد خرجت
من باب القصر كأنها غزال انفلت من شبكة صياد عليها قميص سكب

(١) محمد بن سيرين البصري الأنصاري : إمام عصره ، وحافظ وقته من كبار التابعين ،

ومن المعبرين للرؤيا ، ت [١١٠هـ] .

(٢) انظر : العقد الفريد ، لابن عبد ربه (٦٦/٦) .

إسكندراني يبين منه بياض ثدييها وتدوير سرتها ونقش تكتها ، وفي رجليها نعلان صراران ، قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعلها بذؤابتين تضربان حقويها^(١) ، ولها صدغان كأنهما نونان ، وحاجبان قد قوسا على محاجر عينيها ، وعينان مملوءتان سحرا ، وأنف كأنه قصبة بلور ، وفم كأنه جرح يقطر دما ، وهي تقول : عباد الله من لى بدواء من لا يسلو ، وعلاج من لا يسمو ، طال الحجاب وأبطأ الجواب ، فالقلب طائر ، والعقل عازب ، والنفس والهة ، والفؤاد مختلس ، والنوم محتبس ، رحمة الله على قوم عاشوا تجلدا وماتوا كمدا^(٢) ، ولو كان إلى الصبر حيلة وإلى العزاء سبيل لكان أمرا جميلا ، ثم أطرقت مليا ورفعت رأسها ، فقلت : أيتها الجارية إنسية أنت أم حنية سماوية أم أرضية فقد أعجبنى ذكاء عقلك وأذهلنى حسن منطقك ، فسترت وجهها بكفيها كأنها لم ترنى ، ثم قالت : اعذر أيها المتكلم فما أوحش الساعد بلا مساعد والمقاساة لصب معاند ثم انصرفت ، فوالله -أصلح الله الأمير- ما أكلت طيبا إلا غصصت به لذكرها ، ومارأيت حسنا إلا سمع في عيني لحسنها . قال سليمان : ياأبا زيد كاد الجهل يستفزنى والصبا يعاودنى والحلم يعزب عنى لشجو ما سمعت اعلم ياأبا زيد تلك الجارية التى رأيتها هى الذلفاء^(٣) التى قيل فيها :

إنما الذلفاء ياقوتة قد أخرجت من كيس دهقان^(٤)

(١) الحقو : الحصر .

(٢) الكمد : الحزن والغم .

(٣) الذلفاء : جارية ابن طرخبان مغنية شاعرة اشتراها سليمان بن عبد الملك بعد أن

صارت إليه العلافة . انظر : اعلام النساء (١/٤٢٧) .

(٤) الدُفقان : تاجر الأحجار الكريمة .

شراؤها على أخى بألف ألف درهم وهى عاشقة لمن باعها والله إن مات إنما يموت بحبها ولا يدخل القبر إلا بغصتها وفى الصبر سلوة وفى توقع الموت هبة ، قم يا أبا زيد فى دعة الله ، يا غلام ثقله بيدرة فأخذتها وانصرفت .

قال : فلما أفضت الخلافة له صارت إليه الذلفاء فأمر بفسطاط فأخرج على دهناء الغوطة وضرب فى روضة خضراء مونة زهراء ذات حدائق بهجة تحتها من أنواع الزهر من أصفر فاقع وأحمر ساطع وأبيض ناصع، وكان لسليمان مغن يقال له سنان كان به يأنس وإليه يسكن فأمره أن يضرب فسطاطه بالقرب منه ، وكانت الذلفاء قد خرجت مع سليمان إلى ذلك المتنزه فلم يزل فى أكل وشرب وسرور وأتم حبور إلى أن انصرف شىء من الليل فذهب إلى فسطاطه وذهب سنان أيضا فنزل به جماعة من إخوانه ، فقالوا له : نريد قرى^(١) أصلحك الله . قال : وما قراكم قالوا : أكل وشرب وسماع قال : أما الأكل والشراب فمباحان لكم وأما السماع فقد عرفتم غيرة أمير المؤمنين ونهيه إلا ما كان فى مجلسه قالوا : لا حاجة لنا بطعامك وشرابك إن لم تسمعنا قال : فاختراروا أصواتا أغنيكموه ، قالوا : غننا بصوت كذا وكذا . قال : فشرع يتغنى بهذه الأبيات :

محبوبة سمعت صوتى فأرقها	من آخر الليل لما نبه السحر
فى ليلة البدر ما يدرى مضاجعها	أوجهها عنده أم عنده القمر
لم يحجب الصوت حراس ولا غلق	فدمعها الطروق الصوت ينحدر
لو مكثت لمشت نحوى على قدم	وكاد من لينها للمشى ينفطر

(١) القيرى : ما يقدم للضيف .

قال : فسمعت الذلفاء صوت سنان فخرجت إلى صحن الفسطاط فجعلت لاتسمع شيئاً من حسن خلق ولطافة إلا رأت ذلك كله فى نفسها وهيئتها فحرك ذلك ساكناً من قلبها فهملت عيناها وعلا نحيبها ؛ فانتبه سليمان فلم يجدها معه فخرج إلى صحن الفسطاط فرآها على تلك الحالة فقال لها : ما هذا يا ذلفاء ؟ فقالت :

الارب شخص رائع ومشوه قبيح المحيا واضع الأب والجد
يروعك منه صوته ولعله إلى أمه يعزى معا وإلى عبد

فقال سليمان : دعينى من هذا الحال فوالله لقد خامر قلبك منه يا غلام علىَّ بسنان ، فدعت الذلفاء خادما لها وقالت له : إن سبقت رسول أمير المؤمنين إلى سنان فحذرتك فلك عشرة آلاف درهم ، وأنت حر لوجه الله تعالى ؛ فخرج الرسولان فسبق رسول أمير المؤمنين ؛ فلما أتى به قال : ياسنان ألم أنهك عن مثل هذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين حملنى الشمول وأنا عبد أمير المؤمنين وغرس نعمته فإن رأى أمير المؤمنين أن يعفو عنى ، فليفعل قال : قد عفوت عنك ، ولكن أما علمت أن الفرس إذا صهل ودقت له الحجرة ، وأن الفحل إذا هدر ضبعت له الناقة ، وأن الرجل إذا تغنى صغت إليه المرأة ، وإياك والعود إلى ما كان منك فيطول غمك ، انتهى^(١) .

[٣٥] وقيل : كان فى أيام سليمان رجل يقال له : خزيمة بن بشر من بنى أسد كانت له مروءة ظاهرة ونعمة حسنة وفضل وبر بالإخوان فلم يزل على تلك الحالة حتى قعد به الدهر فاحتاج إلى إخوانه الذين كان

(١) انظر : تزيين الأسواق فى أخبار العشاق ، لداود الأنطاكى ص ٢٨٦ .

يتفضل عليهم وكان يواسيهم فواسوه حينئذ ثم ملوه فلما لاح له تغييرهم أتى امرأته وكانت ابنة عمه فقال : يا ابنة عمي قد رأيت من إخواني تغيرا وقد عزمت على أن ألزم بيتي إلى أن يأتيني الموت ، فأغلق بابه وأقام يتقوت بما عنده حتى نفذ وبقي حائرا .

وكان يعرفه عكرمة الفياض الربعي متولى الجزيرة وإنما سمي بذلك لأجل كرمه ، فبينما هو فى مجلسه إذ ذكر خزيمة بن بشر ، فقال عكرمة الفياض : ما حاله فقالوا : قد صار إلى أمر لا يوصف ، وإنه أغلق بابه ولزم بيته قال : أفما وجد خزيمة بن بشر مواسيا ولا مكافئا ؟ فقالوا : لا ، فأمسك عن الكلام . ثم لما كان الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار فجعلها فى كيس واحد ثم أمر بإسراج دابته وخرج سرا من أهله ، فركب ومعه غلام من غلمانه يحمل المال ثم سار حتى وقف بباب خزيمة ، فأخذ انكيس من الغلام ثم أبعده عنه وتقدم إلى الباب فدفعه بنفسه ، فخرج إليه خزيمة فناوله الكيس ، وقال : أصلح بهذا شأنك فتناوله فرآه ثقبلا فوضعه عن يده ، ثم أمسك بلجام الدابة وقال له : من أنت جعلت فداك ؟ فقال له عكرمة : يا هذا ماجئتك فى هذا الوقت والساعة وأريد أن تعرفنى ، قال : فما أقبله إلا إن عرفتنى من أنت ، فقال : أنا جابر عشرات الكرام ، قال : زدنى قال : لا ، ثم مضى ودخل خزيمة بالكيس على ابنة عمه فقال لها : أبشرى فقد أتى الله بالفرج والخير ولو كانت فلوسا فهى كثيرة قومى فاسرجى قالت : لاسبيل إلى السراج فبات يلمسها بيده فيجد خشونة الدنانير ولا يصدق وأما عكرمة فإنه رجع إلى منزله فوجد امرأته قد فقدته وسألت عنه فأخبرت بركوبه فأنكرت ذلك وارتابت وقالت له : والى الجزيرة يخرج بعد هدو من الليل منفردا من غلمانه فى سر من أهله إلى

زوجة أو سرية، فقال: اعلمى أنى ماخرجت فى واحدة منهما ، قالت :
فخبرنى فمى خروجك. قال: يا هذه ماخرجت فى هذا الوقت وأنا أريد أن
يعلم بى أحد ، قالت : لابد أن تخبرنى قال : تكتمينه إذا ؟ قالت : فىنى
أفعل فأخبرها بالقصة على وجهها وماكان من قوله ورده عليه ، ثم قال :
أتحبين أن أحلف لك أيضا ؟ قالت : لا فىان قلبى قد سكن وركن إلى
ماذكرت وأما خزيمة فلما أصبح صالح الغُرماء ، وأصلح ماكان من حاله .

ثم إنه تجهز يريد سليمان بن عبد الملك وكان نازلا يومئذ بفلسطين؛
فلما وقف ببابه واستأذن دخل الحاجب فأخبره بمكانه وكان مشهورا
بمروءته وكرمه وكان سليمان عارفا به فأذن له ؛ فلما دخل سلم عليه
بالخلافة فقال له سليمان بن عبد الملك: ياخزيمة ماأبطأك عنا؟ قال: سوء
الحال قال : فما منعك من النهضة إلينا ؟ قال : ضعفى ياأمير المؤمنين.
قال : فمى نهضت إلينا الآن ؟ قال : لم أعلم ياأمير المؤمنين إلا أنى بعد هدو
من الليل لم أشعر إلا ورجل يطرق الباب وكان من أمره كيت وكيت
وأخبره بقصته من أولها إلى آخرها ؛ فقال سليمان : هل تعرف الرجل فقال
خزيمة : ماعرفته ياأمير المؤمنين لأنه كان متنكرا ، وماسمعت من لفظه إلا
أنى جابر عثرات الكرام . قال : فتلهب وتلهف سليمان بن عبد الملك على
معرفته وقال : لوعرفناه لكافأناه على مروءته ، ثم قال : على بقناة فأتى بها؛
فقعده لخزيمة بن بشر المذكور على الجزيرة عاملا عوضا عن عكرمة
الفياض فخرج خزيمة طالبا الجزيرة . فلما قرب منها خرج عكرمة وأهل
البلد للقاءه فسلما على بعضهما ثم سارا جميعا إلى أن دخلا البلد، فنزل
خزيمة فى دار الإمارة ، وأمر أن يأخذ لعكرمة كفيل وأن يحاسب فحوسب
فوجد عليه فضول أموال كثيرة ، فطالبه بأدائها ، قال : مالى إلى شىء من

ذلك سبيل ، قال : لابد منها ، قال : ليست عندي فاصنع ماأنت صانع ، فأمر به إلى الحبس ثم أنفذ إليه من يطالبه فأرسل يقول : إني لست ممن يصون ماله بعرضه فاصنع ماشئت ، فأمر أن يكبل بالجديد فأقام شهرا كذلك أو أكثر فأضناه^(١) ذلك وأضر به .

وبلغ ابنة عمه خبره ، فجزعت واغتمت لذلك ثم دعت مولاة لها وكانت ذات عقل ومعرفة وقالت لها : امضى الساعة إلى باب هذا الأمير خزيمة بن بشر ، وقولي عندي نصيحة فإذا طلبت منك فقولي : لأقولها إلا للأمير خزيمة بن بشر ، فإذا دخلت عليه فسلية أن يخليك ، فإذا فعل ذلك فقولي : ماكان هذا جزاء جابر عثرات الكرام منك كافأته بالحبس والضيق والحديد ففعلت الجارية ذلك ؛ فلما سمع خزيمة كلامها نادى برفيح صوته وا سؤأتاه ، وإنه لهو قالت : نعم فأمر لوقته بدابته فأسرجت وبعث إلى وجود أهل البلد فجمعهم إليه وأتى بهم إلى باب الحبس ففتح ودخل خزيمة ومن معه فرآه قاعدا في قاعة الحبس متغيرا أضناه الضرو الألم وثقل القيود ، فلما نظر إليه عكرمة وإلى الناس أحشمه ذلك فنكس رأسه فأقبل خزيمة حتى أكب على رأسه فقبله فرفع عكرمة إليه رأسه قال : ما أعقب هذا منك ؟ قال : كريم فعالك وسوء مكافأتي يغفر الله لنا ولك ثم أتى بالحداد ففك القيود عنه وأمر خزيمة أن توضع القيود في رجل نفسه ، فقال عكرمة : ماذا تريد فقال : أريد أن ينالني من الضر مثل مانالك ، فقال : أقسم عليك بالله لا تفعل ، فخرجوا جميعا حتى وصلا إلى دار خزيمة فودعه عكرمة وأراد الانصراف عنه ، فقال : ماأنت بيارح ، قال : وماتريد ، قال :

(١) أضناه : عناه .

أغير حالك وإن حيائي من ابنة عمك أشد من حيائي منك ، ثم أمر بالحمام فأخلى ودخله معا فقام خزيمة وتولى أمره وخدمه بنفسه ثم تخرجوا فخلع عليه وحمله وحمل معه كثيرا ، ثم سار معه إلى داره واستأذنه في الاعتذار إلى ابنة عمه فاعتذر إليها ، وتذمم من ذلك . قال : ثم سأله بعد ذلك أن يسير معه إلى سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ مقيم بالرملة فأنعم له بذلك ، وسارا جميعا حتى قدما على سليمان بن عبد الملك ، فدخل الحاجب فأعلمه بقدم خزيمة بن بشر فراعه ذلك ، وقال : والى الجزيرة يقدم بغير أمرنا ما هذا إلا لحادث عظيم فلما دخل قال له : قبل أن يسلم عليه ماوراءك يا خزيمة ؟ قال : الخير يا أمير المؤمنين . قال : فما الذى أقدمك ؟ قال : ظفرت بجابر عثرات الكرام فأحببت أن أسرك به لما رأيت من تلهفك وتشوقك إلى رؤيته ، قال : ومن هو ؟ قال : عكرمة الفياض ، قال : فأذن له بالدخول فدخل وسلم عليه بالخلافة فرحب به وأدناه من مجلسه وقال عكرمة : ما كان خيرك له إلا وبالا عليك ؛ ثم قال سليمان : اكتب حوائجك كلها وماتحتاج إليه فى رقعة ففعل ذلك ، فأمر بقضائها من ساعته وأمر له بعشرة آلاف دينار وسفطين ثيابا ثم دعا بقناة وعقد له على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان ، وقال له : أمر خزيمة إليك إن شئت أبقيته وإن شئت عزلته قال : بل اردده إلى عمله يا أمير المؤمنين ثم انصرفا من عنده جميعا ولم يزالا عاملين لسليمان مدة خلافته والله أعلم .

٥ - فصل

خلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه ونفعنا به^(١)

أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فهو تابعي جليل.

[٣٦] قال الإمام أحمد بن حنبل : ليس أحد من التابعين قوله حجة إلا عمر بن عبد العزيز ، كان رضى الله عنه عفيفا زاهدا ناسكا عابدا مؤمنا تقيا صادقا ، أزال ما كانت بنو أمية تذكر به عليا رضي الله عنه على المنابر وجعل مكان ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحر: ٩٠] الآية.

[٣٧] و[قيل] : لما ولى الخلافة رضي الله عنه وفد الشعراء إليه وأقاموا ببابه أياما لا يؤذن لهم فبينما هم كذلك إذ مر بهم رجاء بن حيوة وكان جليس عمر فلما رآه جرير^(٢) داخل قام إليه وأنشد يقول أبياتا منها :

(١) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي ، أبو حفص : الخليفة العادل ، عد من الخلفاء الراشدين كان يقول : كانت لى نفس تواقه ، ناقت إلى الإمارة ، فلما بلغتها ، ناقت إلى الخلافة فلما بلغتها ناقت إلى الحنة . ت [٩٩هـ - ٧١٧م] . انظر: حلية الأولياء (٢٥٣، ٢٥٢/٥) .

(٢) جرير ، أبو حرزة : شاعر أموي ولد فى اليمامة . امتاز بالهجاء لاسيما هجو خصميه الأخطل والفرزدق . له ديوان يتضمن الفنون التقليدية من مدح وهجاء وفخر وغزل...، ت[١١٤هـ - ٧٣٣م] .

يأبىها الرجل المرخى عمامته هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا
فدخل ولم يذكر شيئا من أمرهم ثم مر بهم عدى بن أرطأة^(١) فقال
جرير: أبياتا آخرها قوله :

لاتنس حاجتنا لقيت مغفرة قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني
قال^(٢): فدخل عدى على عمر وقال : يا أمير المؤمنين الشعراء يبابك
وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة فقال : ويحك ياعدى مالي وللشعراء ،
قال: أعز الله أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قد امتدح وأعطى لك فى
رسول ﷺ أسوة ، قال: كيف ؟ قال : امتدحه العباس بن مرداس
السلمى^(٣) فأعطاه حلة قطع بها لسانه . قال: أتروى من قوله ؟ قال : نعم ،
وأنشد :

رأيتك ياخير البرية كلها	نشرت كتابا جاء بالحق معلما
شرعت لنادين الهدى بعد جورنا	عن الحق لما أصبح الحق مظلما
ونورت بالبرهان أمرا مدنا	وأطفأت بالإسلام نارا تضرما
فمن مبلغ عنى النبى محمدا	وكل امرئ يحزى بما كان قدما

(١) عدى بن أرطأة الغزاري ، أبو وائلة : أمير من أهل دمشق ، كان من العقلاء الشجعان ،
ولاه عمر بن عبد العزيز على البصرة ، قتل فى فتنة يزيد بن المهلب بالعراق ،
ت[١٠٢هـ - ٧٢٠م] . انظر : تاريخ نيمقوي (٥٣/٣) .

(٢) انظر : ثمرات الأوراق ص ٦٣ .

(٣) العباس بن مرداس : شاعر سليمي أسلم وباع النبى ﷺ هو وقومه ، ت[١٨هـ -
٦٣٩م] .

أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه وقد كان قدما ركنه قد تهدما
فقال : ويلك ياعدى من بالباب منهم ؟ قال : عمر بن أبى ربيعة^(١) ،
قال له : أو ليس هو الذى يقول :

ثم نهتنا فمرت كعابا طفلة ماتبين رجع الكلام
ساعة ثم إنها لى قالت ويلتى قد عجلت يابن الكرام
فلو كان عدو الله إذ فجر كتم على نفسه لكان أستر له لا يدخل على
والله أبدا فمن بالباب سواه ؟ قال : الفرزدق^(٢) قال : أو ليس هو الذى
يقول :

هما دليانى من ثمانين قامة كما انقض بازاكم الريش كاسره
فلما استوت رجلاى فى الأرض قالتا أحى فيرجى أم قتيل نحاذره
لا يدخل على والله أبدا ، فمن سواه منهم ؟ قال : الأخطل^(٣) قال :
ياعدى أو ليس هو الذى قال :

ولست بصائم رمضان طوعا ولست بأكل لحم الأضاحى
ولست بزاجر عيما بكورا إلى بطحاء مكة للنجاح

(١) عمر بن أبى ربيعة المخزومى ، أبو الخطاب : كان شاعرا مشهورا كثير الغزل ،
والنادر والروائع ، والمجون والخلاعة ، ت[٩٣هـ - ٧١٢م] .

(٢) همام بن غالب بن صعصعة بن محاشع ، الفرزدق : من شعراء الدولة الأموية . ولد
فى البصرة ، اشتهر بالمدح والهجو ، لاسيما مادار بينه وبين جرير فى الهجاء . له
ديوان جمعه محمد بن حبيب ، ت[١١٤هـ - ٧٣٣م] .

(٣) غياث التغلبى ، الأخطل : شاعر نصرانى ، اشتهر بمدح الأمويين وهجاء أعدائهم . له
نقائض مع جرير ، وديوان جمع قصائده السكرى ، ت[٩١هـ - ٧١٠م] .

ولست بقائم كالعود أدعو قبيل الصبح حى على الفلاح
ولكنى سأشر بها شمولا وأسجد عند مبتلج الصباح

والله لا يدخل على أبدا وهو كافر . فمن بالباب سوى من ذكرت ؟
قال: الأحوص^(١) قال : أوليس هو الذى يقول :

الله بينى وبين سيدها يغربها عنى وأتبعه
فمن بالباب دون من ذكرت أيضا ؟ قال : جميل بن معمر^(٢) . قال :

فيا ليتنا نحيا جميعا وإن أمت يوافق موتى موتها وضريحها
فلو كان عدو والله تمنى لقاءها فى الدنيا ليعمل بعد صالحا لكان
أصلح والله لا يدخل على أبدا . فهل أحد سوى من ذكرت ؟ قال : جرير ،
قال : أوليس هو الذى يقول :

طرفتك صائدة القلوب وليس إذ وقت الزيارة فارجمى بسلام
فإن كان ولا بد فهو الذى يدخل فلما مثل بين يديه ، قال : ياجرير
اتق الله ولا تقل الا حقا فأنشد قصيدته الرائية المشهورة التى منها :

إننا لنرجو اذا ما الغيث أخلفنا من الخليفة مانرجو من المطر

(١) عبد الله ، الأحوص : شاعر أموى من أهل المدينة . اشتهر بالهجاء والغزل ، وكان
ماجنا فنهال الجلد والتشهير ، ت[١٠٤هـ - ٧٢٣] .

(٢) جميل بن معمر العذرى ، جميل بثينة : شاعر أموى من بنى عذرة ، تغنى بمعشوقته
بثينة فعرف بها توفى بمصر ، ت[٨١هـ - ٧٠١م] .

جاء الخلافة أو كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر
هذى الأرملة قد قضيت حاجتها فمن لحاجة هذا الأرملة الذكر
الخير مادمت حيا لا يفارقنا بوركت يا عمر الخيرات من عمر

فقال يا جرير : لأرى لك فيما ههنا حقا قال : بلى يا أمير المؤمنين أنا
ابن سبيل منقطع ، فأعطاه من طيب ماله مائة درهم ، وقال : ويحك
يا جرير لقد ولينا هذا الأمر ولم نملك إلا ثلثمائة درهم فمائة أخذها عبد
الله ، ومائة أخذتها أم عبد الله ، يا غلام : اعطه المائة الاخرى فأخذها جرير ،
وقال : والله لهى أحب مال اكتسبته فى عمرى ثم خرج . فقال له الشعراء :
ماوراءك ؟ فقال : مايسوءكم ، خرجت من عند خليفة يعطى الفقراء ويمنع
الشعراء ، وإنى عنه لراض وأنشد يقول :

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطانى من الجن راقيا

٦- فصل

خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان^(١)

[٣٨] قال أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني قال يونس الكاتب : خرجت إلى الشام في خلافة هشام بن عبد الملك ومعى جارية غانية وكنت علمتها جميع ماتحتاج إليه وأنا أقدر فيها أنها تساوى مائة ألف درهم ، قال : فلما قربنا من الشام نزلت القافلة عن غدير من الماء ونزلت ناحية منه وأصبت من طعام كان معى وأخرجت ركوة كان فيها نبيذ فبينما أنا كذلك ، وإذا بفتى حسن الوجه والهيئة على فرس أشقر ومعهم خادمان فسلم على وقال : أتقبل ضيفا ؟ قلت : نعم فأخذ بركابه ونزل ، وقال : اسقنا من شرابك فسقيته فقال : إن شئت أن تغنى صوتا فغنيته :

حازت من الحسن مالا حازه البشر فلذ لى فى هواها الدمع والسهر
فطرب طربا شديدا واستعاده مرارا ثم قال : قل لحاريتك فلتغن ،
فأمرتها فغنّت :

جويرة حار قلبى فى محاسنها فلا قضيب ولاشمس ولاقمر
فطرب طربا شديدا واستعاده مرارا ولم يزل مقيما إلى أن صلينا
العشاء؛ ثم قال : ماأقدمك علينا هذا البلد ؟ قلت : أردت بيع جاريتى هذه.

(١) هشام بن عبد الملك بن مروان : من ملوك الدولة الأموية بالشام ، أخو يزيد الثانى .
فى عهده بلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساعها فتح ناربونا ، وبلغت أبوابه فرنسا
حيث وقعت معركة "بلاط الشهداء" ت[١٢٥هـ - ٧٤٣م] . انظر : تاريخ الطبرى
(٣٨٣/٨) ، تاريخ ابن خلدون (٨٠/٣ - ١٣٠) .

قال : فكم أملت فيها من الثمن قلت ما أقضى به ديني وأصلح به حالي ،
قال : ثلاثون ألفا ، قلت ما أحوجني إلى فضل الله والمزيد فيه ، قال :
أيقنك أربعون ألفا ، قلت فيها قضاء ديني وأبقى صفر اليد ، قال : قد
أخذناها بخمسين ألفا من الدراهم ، ولك بعد ذلك كسوة ونفقة طريقك
وأشركك في حالي أبدا ما بقيت ، فقلت : قد بعثتها . قال : أفشق بي أن
أوصل ذلك غدا وأحملها معي ، أو تكون عندك إلى أن أحمل ذلك اليك
غدا ، فحملني السكر والحياء مع الخشية منه على أن قلت : نعم قد وثقت
بك فخذها بارك الله لك فيها ، فقال : لأحد غلامي يحملها على دابتك
وارتدف وراءها وامض بها ؛ ثم ركب فرسه وودعني وانصرف ، فما هو
إلا أن غاب عني ساعة ، فعرفت موضع خطئي وغلطي ، وقلت : ماذا
صنعت بنفسى أسلم جاريته إلى رجل لأعرفه ولا أدري من هو ، وهب أنى
عرفته فمن أين الصلة إليه ، فجلست متفكرا إلى أن صليت الصبح ودخل
أصحابي دمشق وجلست حائرا لا أدري ما أصنع وقرعتني الشمس وكهرت
المقام فهمت بالدخول إلى دمشق ثم قلت لم آمن أن الرسول يأتي فلا
يجدني ، فأكون قد جنيت على نفسى جناية ثانية فجلست فى ظل جدار
هناك فلما أضحى النهار وإذا أحد الغلامين اللذين كانا معه قد أقبل على فما
أذكر أنى سررت بشئ لأعظم من سرورى ذلك الوقت بالنظر إليه ، فقال
لى : ياسيدى أبطأنا عليك فلم أذكر له شيئا مما كان بى ؛ ثم قال لى :
أتعرف الرجل ؟ قلت : لا ، قال : هو الوليد بن يزيد^(١) ولى العهد فسكت

(١) الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، أبو العباس : ولى الخلافة بعد وفاة عمه
هشام ، نمكت فى الخلافة سنة وثلاثة أشهر . وتقم عليه الناس حبه للهو ، حتى قتل
فى قصر النعمان بن بشير ت [١٢٦هـ - ٧٤٤م] . انظر : تاريخ ابن خلدون (١٠٦/٣) .

عند ذلك ؛ ثم قال : قم فاركب وإذا معه دابة فركبتها وسرنا إلى أن وصلنا إلى داره فدخلت إليه وإذا بالجارية قد وثبت وسلمت على فقلت : ما كان من أمرك ؟ قالت : أنزلني هذه الحجرة وأمر لي بما أحتاج إليه فجلست عندها ساعة ، وإذا أنا قد أتاني خادم له ، فقال لي : قم فقممت فأدخلني على سيده فإذا هو صاحبي بالأمس وهو جالس على سريره ، فقال : من تكون فقلت : يونس الكاتب ، قال : مرحبا بك قد كنت والله إليك بضنين وكنت أسمع بخبرك فكيف كان مبيتك في ليلتك قلت : بخير أعزك الله ، قال : فلعلك ندمت على ما كان منك البارحة وقلت دفعت جاريتي إلى رجل لا أعرفه ولا أعرف اسمه ولا من أي البلاد هو ، فقلت : معاذ الله أيها الأمير أن أندم ولو أهديتها إلى الأمير كانت أقل وأخس وما قدر هذه الجارية ، فقال : والله لكنني ندمت على أخذها منك ، وقلت : رجل غريب لا يعرفني وقد دهمته وسفهت عليه في استعجالي لأخذ الجارية أفنذكر ما كان بيننا ، قلت : نعم قال : بعنني هذه الجارية بخمسين ألف درهم قلت : نعم ، قال : هات يا غلام المال فوضعه بين يديه ، فقال : هات يا غلام ألف دينار فأتى بها ثم قال : يا غلام هات خمسمائة دينار أخرى فجاء بها ثم قال : هذا ثمن جاريتك فضمه إليك وهذه ألف دينار لحسن ظنك بنا وهذه الخمسمائة دينار لنفقة طريقك ومتابعا لأهلك رضييت ، قلت : رضييت وقبلت يديه وقلت : والله قد ملأت عيني ويدي ثم قال : والله إنني لم أدخل بها ولا شبع من غنائها على بها فجاءت فأمرها بالجلوس فجلست فقال لها : غني فأنشدت تقول :

أيا من حاز كل الحسن طرا	وياحلو الشمائل والدلال
جميع الحسن في عجم وعرب	ومافى الكل مثلك يا غزالي
فعطفا يامليح على محب	بوعدك أو بطيف من خيال

حلالي فيك ذلي وافتضاحي وطاب لمقتلى سهر الليالي
وماأنا فيك أول مستهام فكم قبلى قتلت من الرجال
رضيتك لى من الدنيا نصيبا وأنت أعز من روحى ومالى

فطرب طربا شديدا وشكر حسن تأديبى لها وتعليمى إياها ثم قال :
ياغلام قدم له دابة بسرجهها وآلتها لركوبه وبغلا لحمل حوائجه وثقله ؛ ثم
قال : يايونس إذا بلغك أن هذا الأمر قد أفضى إلى فالحق بى فوالله لأملأن
لك يدك ولأعلن قدرك ولأغننك ما بقيت قال : فأخذت المال وانصرفت
فلما أفضت الخلافة إليه سرت إليه ، فوفى والله بوعده وزاد فى إكرامى
وكنت معه على أسر حال وأسمى منزلة ، وقد اتسعت أحوالى وكثرت
أموالى وصار لى من الضياع والأملك ما يكفينى إلى مماتى ويكفى من
بعدى ولم أزل معه حتى قتل عفا الله عنه .

[٣٩] وقيل : إنه لما حج هشام فى أيام أبيه طاف بالبيت وجهد أن
يصلى إلى الحجر الأسود ليستلمه فلم يقدر عليه لكثرة الزحام ، فنصب له
منبر وجلس عليه ينظر إلى الناس ومعه جماعة من أهل الشام . فبينما هو
كذلك إذا أقبل زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب عليه السلام ^(١)
أجمعين ، وكان من أحسن الناس وجها وأطيبهم أرجا ^(٢)، فطاف بالبيت

(١) زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب : رابع الأئمة الاثنى عشر عند
الإمامية ، وأحد من كان يضرب بهم المثل فى الحلم والورع ، يقال له : على الأصفر
للتميز بينه وبين أخيه ، ت [٩٤هـ - ٧١٢م] . انظر : وفيات الأعيان (١/٢٣٠) ،
طبقات ابن سعد (٥/١٥٦) ، الحلية (٣/١٣٣) .

(٢) أرج : فاحت منه رائحة طيبة .

فلما انتهى إلى الحجر الأسود تنحى له الناس حتى استلمه ، فقال رجل من أهل الشام : من هذا الذى قد هابه الناس هذه الهيبة؟ فقال هشام : لأعرفه مخافة أن يرغب فيه أهل الشام ، وكان أبو فراس الفرزدق حاضرا، فقال: أنا والله أعرفه ، فقال الشامى : من هذا ياأبا فراس ؟ فقال(١) :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم	هذا التقى النقى الطاهر العلم
إذا رآته قريش قال قائلها	إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
ينمى إلى ذروة العز التى قصرت	عن نيلها عرب الإسلام والعجم
يكاد يمسكه عرفان راحته	ركن الحطيم إذا ماجاء يستلم(٢)
فى كفه خيران ريحه عبق	من كف أروع فى عرنيه شمم(٣)
يفضى حياء ويفضى من مهابته	فما يكلم إلا حين يتسم(٤)
ينشق نور الهدى من نور غرته	كالشمس ينجاب عن إشراقها القتم(٥)
مشتقة من رسول الله نبته	طابت عناصره والخيم والشيم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله	بحده أنبياء الله قد ختموا
الله شرفه قدرا وعظمه	جرى بذاك له فى لوحه القلم
وليس قولك من هذا بضائره	والعرب تعرف من أنكرت والعجم

(١) انظر : ديوان الفرزدق ص ٥١١ .

(٢) الحطيم : جدار حجر الكعبة ، سمي بذلك لانحطام الناس عيه ، أى لازدحامهم ..

(٣) خَيْرُ ران : عود من الخشب اللين . العِران : عود يجعل فى الأنف

(٤) غَضٌ : نَضْرُ . يفضى ، بمعنى : منع النظر إليه من مهابته

(٥) القَتَمَ : ضرب من السواد.

كلتا يديه غياث عم نفعها يستو كفان ولا يعرفهما عدم^(١)
سهل الخليفة لانتخشي بواده يزينه اثنان حسن الخلق والشيم^(٢)
حمال أثقال أقوام إذا اقترحوا حلوا الشماثل يحلو عنده نعم
ماقال لا قط إلا فى تشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعم
عم البرية بالإحسان فانقشعت عنها الغياهب والإملاق والعدم
من معشر حبههم دين وبغضهمو كفسر وقربهم منحى ومعتصم
إن عد أهل التقى كانوا أنمتهم أو قيل ومن خير أهل الأرض قيل هم
لايستطيع جواد بعد غايتهم ولا يداينهم قوم وإن كرموا
هم الغيوث إذا ما أزمة أزمت والأسد أسد الشرى والباس محتدم^(٣)
لاينقص العسر بسطا من أكفهم سيان ذلك إن أثروا وإن عدموا
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم فى كل بدء ومختوم به الكلم
يأبى لهم أن يحل الذم ساحتهم خلق كريم وأيد بالندى هضم
أى الخلائق ليست فى رقابهم لاولية هـذا أوله نعم
من يعرف الله يعرف أولية ذا فالدين من بيت هذا ناله الأمم

فلما سمع هشام ذلك غضب وحبس الفرزدق ، فأنفذ له زين
العابدين عليه السلام اثنى عشر ألف درهم فردها وقال : مدحته لله لاللعطاء
والصلوات فقال زين العابدين : إنا أهل بيت إذا وهبنا شيئا لانهود فيه ،
فقبلها الفرزدق ، انتهى^(٤) .

(١) غِيَاث : ما أغثت به المضطر من طعام وغيره .

(٢) بَوَادِرُهُ : ما يبدو من الإنسان عند حدثه .

(٣) الشَّرَى ، جمعها أشراء : مأسده جانب الفرات . يضرب بها المثل فيقال : كأسد الشرى .

(٤) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (٢٠/١) .

[٤٠] ومما يحكى : أن هشام بن عبد الملك كان ذات يوم فى صيده وقنصه ، إذ نظر إلى ظبى تتبعه الكلاب فتبعه وأحاطه إلى خباء أعرابى يرعى غنما ، فقال هشام: يا صبى دونك هذا الظبى ، فأُتِنى به ، فرفع الصبى رأسه إليه وقال له : يا جاهل بقدر الأخيار لقد نظرت إليّ باستصغار وكلمتني باحتقار فكلامك كلام جبار وفعلك فعل حمار ، فقال هشام : يا صبى ويلك ماتعرفنى ! فقال : قد عرّفنى بك سوء أدبك، إذ بدأتني بكلامك قبل سلامك ، فقال : ويلك أنا هشام بن عبد الملك ، فقال له الاعرابى : لا قرب دارك ولا حيا مزارك ما أكثر كلامك وأقل إكرامك ؛ فما استتم حتى أهدقت به الجيوش من كل جانب كلٌ منهم يقول : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال هشام : أقصروا الكلام واحفظوا الغلام فقبضوا عليه .

ورجع هشام إلى قصره وجلس فى مجلسه وقال : علىّ بالغلام البدوى فأتى به ، فلما رأى الغلام كثرة الغلمان ، والحجاب ، والوزراء ، والكتاب ، وأبناء الدولة ، وأرباب الصولة ، لم يكثر^(١) بهم ، ولم يسأل عنهم ، بل جعل ذقنه على صدره ، وجعل ينظر حيث تقع قدماه إلى أن وصل إلى هشام، فوقف بين يديه ونكس رأسه إلى الأرض وسكت الغلام وامتنع من الكلام ، فقال بعض الخدام : يا كلب العرب مامنعك أن تسلم على أمير المؤمنين؟ فالتفت إليه مغضبا وقال : يا برذعة الحمار منعنى من ذلك : طول الطريق ونهر الدرجة^(٢) والتعويق . فقال هشام : وقد تزايد به

(١) لم يكثر : لم يعبأ .

(٢) نهر الدرجة : الأمور العظيمة .

الغضب ياصبي قد حضرت فى يوم حضر فيه أجلك وخاب فيه أملك وانصرم فيه عمرك ، فقال له الصبى : والله ياهشام لئن كان فى المدة تأخير ماضرنى من كلامك لاقليل ولا كثير، فقال له الحاجب : بلغ من أمرك ومحلك ياأخس العرب أن تخاطب أمير المؤمنين كلمة بكلمة ، فقال له مسرعا : لقيك الخذل ولأملك الويل والهبل أما سمعت ما قال الله تعالى ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تَجَادُلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١] فإذا كان الله يجادل جدالا ، فمن هشام حتى لا يخاطب خطابا ؛ فعند ذلك : قام هشام واغتاض غيظا شديدا وقال : ياسياف على برأس هذا الغلام ؛ فقد أكثر الكلام فيما لا يخطر على الأوهام ، فقام السياف وأخذ الغلام وبركه فى نطع الدم وسل سيف النعمة على رأسه، وقال : ياأمير المؤمنين عبدك المذل بنفسه المتقلب فى رمسه^(١) أضرب عنقه وأنا برئ من دمه؟ قال : نعم فاستأذنه ثانية ، فأذن له ، ثم استأذنه ثالثة، فهم أن يأذن له فضحك الصبى حتى بدت نواجذه فازداد هشام منه تعجبا ، وقال : ياصبى أظنك معتوها ترى أنك مفارق الدنيا ومزاييل الحياة وأنت تضحك هزا بنفسك ، فقال: يا أمير المؤمنين لئن كان فى المدة تأخير ولم يكن فى الأجل تقصير ماضرنى منك لا قليل ولا كثير ، ولكن أبيات حضرت الساعة فاسمعها فقتلى لا يفوت فأكثر الصموت ، فقال هشام : هات وأوجز فهذا أول أوقاتك من الآخرة وآخر أوقاتك من الدنيا فأنشد يقول :

نُبئت أن الباز علق مرة	عصفور بر ساقه المقدور
فتعلق العصفور فى أظفاره	والباز منهمك عليه يطير

(١) الرَّمَسَ : القبر .

فأتى لسان الحال يخبر قائلا ها ظفرت وإنسى مأسور
مثلى فما يغنى لمثلك جوعة ولئن أكلت فإنى محذور
فتبسم الباز المدل بنفسه طربا وأطلق ذلك العصفور^(١)

قال : فتبسم هشام ، وقال : وقرابتى من رسول الله ﷺ لو تلفظ
بهذا من أول وقت من أوقاته وطلب مادون الخلافة لأعطيته ، يا خادم :
احش فاه درا وجوهرا وأحسن جائزته ودعه يمض إلى حال سبيله .

[٤١] وقيل : وفد عروة بن أذينة^(٢) على هشام بن عبد الملك فشكا
إليه فقره، فقال أأست القائل :

لقد علمت وما الإسراف من خلقي أن الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسمى إليه فيعيننى تطلبه وإن قعدت أتانى ليس يعيننى

وخرجت الآن من الحجاز إلى الشام فى طلب الرزق ، فقال : ياأمير
المؤمنين وعظمت فأبلغت ، وخرج وركب ناقته وكر إلى الحجاز راجعا .

فلما كان الليل نام هشام على فراشه فذكر عروة ، وقال : رجل من
قريش قال حكمة ووفد على فرددته خائبا . فلما أصبح وجه إليه بألفى
دينار، فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة فأعطاه المال ، فقال : أبلغ
عنى أمير المؤمنين السلام وقل له : كيف رأيت قرولى سعت فأكديت^(٣)
فرجعت خائبا فجلست فى دارى فأتانى رزقى فى منزلى انتهى .

(١) المدلّ : الراق بنفسه .

(٢) عروة بن يحيى بن مالك ، ابن أذينة : شاعر غزل ، من أهل المدينة ، وهو معدود من
الفقهاء والمحدثين أيضا . ت[١٣٠هـ-٧٤٧م] . انظر : الشعر والشعراء ص ٢٢٥ .

(٣) أكدي : ألح فى الطلب .